"خطبة دير الجماجم"

للحجاج بن يوسف الثقفي "ت ٩٥هـ"

"بين النداء والاستفهام"

"دراسة بلاغية نقدية"

دكتورة

أماني محمد هاشم عبد المجيد

أستاذ البلاغة والنقد المساعد

في كلية الدراسات الإسلامية والعربية بنات الزقازيق

مُقَدِّمَة

الحمد لله حمد الشاكرين والصلاة والسلام على رسوله الأمين محمد – ﷺ– وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

الباحث غالبًا يتجه نحو الشعر، ويجعله ملجأً يلجأ إليه بالبحث والدراسة والتحليل، وذلك لكثرة قضاياه وموضوعاته في مختلف العصور، فلا يضجر ولا يسأم من دراسته ويجعله مادة حية قابلة للتحليل والتعليق، ومن ثم يلوذ بوفرة المادة العلمية ومصادرها.

فإذا كان هذا النوع من الأدب قد أصبح قبلة الباحثين الذين يتجهون صوبها، فإن النثر العربي وتاريخه الحافل بمختلف جوانبه كان له نصيب غير قليل من الدراسات الأدبية، والتي لا تقل أهمية عن الشعر، إلا أنه لا يزال بكرًا، ويحتاج إلى التنقيب عن مكنوناته، وأسرار بلاغته، وهذا لا يحصل إلا إذا تناولناه بالدراسة والتحليل.

وفي هذا السياق، وقع اختياري على موضوع **(خطبة دير الجماجم، للحجاج ابن يوسف الثقفي "ت٩٥هـ" "بين النداء والاستفهام" " دراسة بلاغية نقدية"** وتهدف هذه الدراسة، إلى البحث عن السمات البلاغية بصفة عامة، ودراسة النداء والاستفهام ومفاهيم النقد بصفة خاصة من خلال خطبة دير الجماجم، باكتشاف مظاهر البلاغة فيها، وممارسة تطبيق مفاهيم النقد عليها. وهذا نظرًا لأهمية البلاغة في الفنون النثرية، وتطور أساليب البلاغة التي تميزت بالقوة في ذلك العصر.

ويضاف إلى ذلك أن هذه الدراسة تهدف إلى الفهم الحقيقي لسرد وجوه البلاغة العربية الأصيلة، والتي هي كنه بلاغة النثر في عصر بنى أمية، ومن جانب آخر أردنا أن نظهر من خلال البحث "دراسة دلالية لأسلوبي النداء والاستفهام" حيث كانا ظاهرة في خطبة دير الجماجم.

لذا كانت الدراسة في هذا البحث متنوعة، ومتعددة الجوانب، كل منها يجرى كسيل العرم يصب في واد واحد، إلا أن الشيء الذي يميز هذا البحث اقتران البلاغة بعلوم متن اللغة، فتلك علوم عربية ذروةُ سنامها ولبُّها وتاجُها وجوهرها البلاغةُ، ومما كسا البحث حلة جميلة، حيث إنه تزين باختلاف الأساليب البلاغية التي جعلت خطبة دير الجماجم تكتسب بلاغة راقية شكلا ومضمونًا.

وعناصرُ خطبة دير الجماجم هي: اللفظ والمعنى، وتآلف الألفاظ يمنحُها قوةً وتأثيرًا وحسنًا، ثم دقةٌ في اختيار الكلمات والأساليب على حسب مواطن الكلام ومواقعه، وموضوعاته، وحال السامعين، والنزعةِ النفسية التي تتملكهم، وتسيطرُ على نفوسهم.

ومن ثم فالهدفُ من دراسة البلاغة في النصوص النثرية هو:

- هدف ديني: يتمثل في تذوق بلاغةِ القرآن الكريم والوقوف على أسرارِها، وتذوقِ بلاغة الرسول -ﷺ- واقتفاءِ أثره فيها.
- هدف نقدي: يتمثلُ في التمييز بين الجيد والرديء من كلام العرب شعرًا ونثرًا.
- هدف أدبي: يتمثل في التدريب على صناعةِ الأدب، وتأليف الجيد من الشعر والنثر.

ومن هذا المنطلق ارتأيت أن أقتحم حصنًا من النصوص النثرية الأموية، وعند شخصية أدبية سياسية متميزة -**الحجاج بن يوسف الثقفي**-، حيث يعد أحد رموز الخطابة العربية عامة والأموية خاصة، فهو من كبار الخطباء والقادة السياسيين الذين عُرِفوا بالفصاحة والبلاغة في هذا العصر، فقد ملأ الآفاق بخطبه الشهيرة، فلا تكاد كتب البلغاء لا تخلو من ذكر اسمه أو بعض خطبه، فمن أحكم خطابه فقد جاد بيانه، وسهل عليه إيصال أفكاره والتأثير في سامعيه، باستمالة قلوبهم إليه.

ومن ثم سوف نغوص – بمشيئة الله تعالى – في أعماق بحار تلك الخطبة، وسبر أغوارها وتخطى مسالكها الوعرة، من أجل استخراج دررها ولآلئها التي تعيننا على فهم النص النثري، وبذلك نكون قد استخرجنا ما فيها من كنوز مغمورة من خلال تحليل نوعًا من أنواع النثر الفني في العصر الأموي.

ومن خلال تحليلنا لـ " **خطبة دير الجماجم** "سوف نظهر أن الذوقُ السليمُ هو العُمْدةُ في معرفةِ حُسنِ الكلمات وسَلاسَتِها؛ لأنَّ الأَلفاظَ أصواتٌ ومعانى، وليستِ

البلاغةُ إلا فنًّا من الفنون تعْتمِدُ على صفاء الاستعداد الفِطريِّ ودقة إدراك الجمالِ.

منهج البحث:

لقد راودتني أسئلة كثيرة، فتحت لي آفاقًا رحبة لدراسة جانبًا من جوانب تراثنا النثري جعلتني أغوص في مجال البحث: أهمها فيما يتجلى بالسمات البلاغية في خطبة دير الجماجم للحجاج بن يوسف الثقفي، وهي:

- إلى أي مدى وفِّق الحجاج في توظيف السمات البلاغية في خطبته ؟.
- هل حقق الحجاج هدفه ومبتغاه من توظيف النداء والاستفهام في خطبته؟.
- ما مكانة تلك الخطبة في النثر التراثي الأموي؟

وقصدًا للإجابة عن هذه التساؤلات اعتمد البحث على المنهج التاريخي الذي ساعدني في تتبع بيئة الشاعر وعصره، كما ساعدني في دراسة دلالة أسلوبي النداء والاستفهام، كما اعتمد البحث أيضًا على منهج الاستقراء والاستقصاء التحليلي البلاغي النقدي، والذي أعانني على تحليل وشرح الفنون البلاغية الموجودة في خطبة دير الجماجم.

خطة البحث: اعتمدت في تقسيم البحث على تمهيد وفصلين وخاتمـــة.

- **التمهيـــــــد: الحجاج بن يوسف الثقفي وموقعة دير الجماجم.**

ويشمل: الاطار التاريخي للعصر الأموي، الخطاب السياسي فـي عصر الحجاج وسماته البلاغية، التعريف بالحجاج بن يوسف الثقفي، موقعة ديـر الجماجم.

- **الفصل الأول: نداءات الحجاج لأهل العراق " بين البلاغة والدلالة والنقد".**
  - الـمبحث الأول: السمات البلاغية في النداء الأول.
  - الـمبحث الثاني: الفنون البلاغية في النداء الثاني.
  - المبحث الثالث: الأسرار البلاغية في النداء الثالث والرابع.
  - الـمبحث الرابع: دلالة الاستفهام في نداء الحجاج لأهل العراق.
- **الفصل الثاني: نداء الحجاج لأهل الشام " بين البلاغة والدلالة والنقد".**
  - الـمبحث الأول: السمات البلاغية في النداء الأول.
  - الـمبحث الثاني: السمات البلاغية في النداء الثاني.
  - الـمبحث الثالث: دلالة النداء في خطبة دير الجماجم.

– الـــمبحث الرابع: خطبة دير الجماجم بين البلاغة وفنون اللغة وفروعها.

- **الخاتمة:** قد تُوِّجَت بأهم نتائج البحث.
- **ثبت بأهم المصادر والمراجع** التي استقى منها البحث.

ومن ثم لا يمكن إغفال بعض العقبات والمعوقات اللاتي اعترضت طريق البحث، ولا يخفي أن مجال البحث كان في عصر شهد اضطرابات سياسية وظهور فرق دينية وأحزاب سياسية أثرت بدورها على اختلاف الروايات لتلك الخطبة في مصادر اللغة والأدب– **من حيث الزيادة والنقصان**–. وذلك حسب المصادر التي ضمنتها في طياتها، لذا اعتمدت على رواية الجاحظ في كتابة " البيان والتبيين"[١].

(١)البيان والتبيين للجاحظ، تحقيق: درويش جويدي ص٣٠١، المكتبة العصرية صيدا– ٢٠١٤م.

تمهيد: الحجاج بن يوسف الثقفي وموقعة دير الجماجم

- ★ الاطار التاريخي للعصر الأموي.
- ★ الخطاب السياسي في عصر الحجاج وسماته البلاغية.
- ★ التعريف بالحجاج بن يوسف الثقفي.
- ★ موقعة دير الجماجم (٨٣ هـ).

تمهيد

الحجاج بن يوسف الثقفي وموقعة دير الجماجم

قبل الحديث عن خطبة دير الجماجم للحجاج بن يوسف الثقفي "ت٩٥هـ"، يتوجب علينا أن نقدم لمحة وجيزة عن شخصية الحجاج بن يوسف الثقفي، وإلقاء نظرة على العصر الذي عاش فيه، حتى تكون لدينا خلفية تاريخية واضحة عن هذه الفترة.

•الاطار التاريخي للعصر الأموي" (٤١ – ١٣٢ هـ / ٦٦٢ – ٧٥٠ م)

يرجع الأمويون في نسبهم إلى أميَّة بن عبد شمس من قبيلة قريش، وكان لهم دورٌ مهم في العهد الجاهلي والإسلامي. حيث " قامت الدولة الأموية بعد انتهاء الخلافة الراشدة على يد معاوية بن أبي سفيان"(١)، والذي بويع – بالكوفة في شهر ربيع الأول سنة إحدى وأربعين– بعد مقتل الإمام علي بن أبي طالب–ﷺ– (٢)، وبعد تنازل الحسن بن علي –ﷺ– عن الخلافة له، ومن ثم بويع معاوية بن أبي سفيان بالخلافة من طرف مؤيديه " في ٢٥ ربيع الأول سنة٤١هـ"، وقد أطلق على هذا العام بـ" عام الجماعة لاتفاق كلمة المسلمين بعد الفُرقة"(٣).

والدولة الأموية هي ثاني وأكبر خلافة في تاريخ الإسلام، وكان بنو أمية أوَّل الأسر المسلمة الحاكمة، –إذ حكموا من سنة٤١هـ–٦٦٢م، إلى١٣٢هـ –٧٥٠ م، وتولى الخلافة في هذا العصر ثلاث عشرة خليفة، وقسمت الخلافة إلى مرحلتين

(١) موجز التاريخ الإسلامي، أحمد معمور العسيري ص ٥٤٩، مكتبة الملك فهد الوطنية، ط/١، ١٩٩٦م.

(٢) تاريخ الرسل والملوك ، الطبري: تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ، ٥/ ١٥١، ١٥٢. دار المعارف، القاهرة، ط/٨ ،١٩٧١م.

(٣) محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية الدولة الأموية، محمد الخضر بك ، تحقيق/ محمد العثماني ص ٤٢٤، دار القلم ، بيروت لبنان ط/١، ١٩٨٦م.

رئيسيتين: مرحلة البيت السفياني، ومرحلة البيت المرواني، وكانت عاصمة الدولة في مدينة دمشق.

وجرت أكبر الفتوحات الأموية في عهد الوليد بن عبد الملك، فاستكمل فتح المغرب، وفتحت الأندلس بكاملها، وفتحت السند وبلاد ما وراء النهر. ثم خلفه سليمان ابن عبد الملك الذي توفي في حصار القسطنطينية، ثم الخليفة الزاهد عمر بن عبد العزيز، الذي يعد من أفضل الخلفاء الأمويين سيرة. وخلفه بعده ابن عمه يزيد، ثم هشام، الذي فتح في عهده جنوب فرنسا، وكان عهده طويلاً وكثير الاستقرار. وبعد موته دخلت الدولة في حالة من الاضطراب الشديد، حتى سيطر مروان بن محمد على الخلافة، فأخذ يتنقل بين الأقاليم ويقمع الثورات والاضطرابات، ثم التقى مع العباسيين في معركة الزاب فهزم وقتل، وكانت نهاية الدولة الأموية"[١].

والآن ننتقل –بمشيئة الله تعالى– إلى التعرف على الخطاب السياسي في عصر الحجاج وسماته البلاغية؛ لبيان مدى تأثر الحجاج بعصره.

(١) تاريخ الرسل والملوك ، الطبري: تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ، ٥/ ١٥٥، ١٥٦.

• الخطاب السياسي في عصر الحجاج وسماته البلاغية.

الخطابة السياسية:

موضوعها السياسة وإثارة الفتن والثورات والحروب، وكانت تدور حول أحقية الخلافة الإسلامية، وبسببها ظهرت الأحزاب السياسية بكثرة. كل حزب يدافع عن نفسه، ويقيم الحجة على الأحزاب السياسية الأخرى. فنهضت نهوضًا عظيمًا بين الأحزاب السياسية وبصفة خاصة الأحزاب المعارضة لبني أمية، وكان لكل حزب خطباؤه الذين يدافعون عنه. ولنذكر على سبيل المثال:

خطبة معاوية بن أبي سفيان:

خطب معاوية بن أبي سفيان لما وَلِيَ فَحَصِر فقال:(**أيّها الناس إنّي كنتُ أعْددتُ مقالاً أقوم به فيكم فحُجبت عنه، فإنّ الله يحول بين المرء وقَلْبه، كما قال في كتابه، وأنتم إلى إمام عَدْل أحوجُ منكم إلى إمام خَطيب، وإني آمركم بما أمر الله به ورسولُه، وأنهاكم عمّا نهاكم الله ورسوله، وأستغفر الله لي ولكم.**)[1].

يبدو لنا أثر القرآن واضح في خطبته، وذلك في قوله – ﷻ–: { **وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ**}[2]. ومن ثم اتسمت الخطبة بـ" الاقتباس أو التضمين" من القرآن الكريم، كما احتوت على مقابلة ثلاثة بثلاثة: بين "الأمر والنهى" و" بما – عمّا " و" الأمر المكرر والنهي المكرر".

وقال في خطبة له أخرى عندما صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قبض على لحيته وقال (**إِنِّي مِنْ زَرْعٍ قَدِ اسْتُحْصِدَ، وَقَدْ طَالَتْ إِمْرَتِي عَلَيْكُمْ حَتَّى مَلِلْتُمُونِي،**

(١) البيان والتبيين للجاحظ ، تحقيق: د. درويش جويدي ١/ ١٤، المكتبة العصرية صيدا – بيروت لبنان ،٢٠١٤م.
(٢) سورة الأنفال أية ٢٤.

وَتَمَنَّيْتُ فِرَاقَكُمْ، وَتَمَنَّيْتُمْ فِرَاقِي، وَلا يَأْتِيكُمْ بَعْدِي خَيْرٌ مِنِّي كَمَا أَنَّ مَنْ كَانَ قَبْلِي كَانَ خَيْرًا مِنِّي، وَقَدْ قِيلَ: مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، اللَّهُمَّ إِنِّي قَدْ أَحْبَبْتُ لِقَاءَكَ فَأَحِبَّ لِقَائِي...) ثم نزل فما صعد المنبر حتى مات، وقيل أنها آخر خطبة خطبها معاوية(١).

وهي خطبة موجزة، وفيها من البديع الجناس الناقص والمقابلة، كما احتوت على الأسلوب الإنشائي الطلبي المتمثل في النداء... إلخ. كل ذلك أعطى الخطبة جمالا ورونقًا، حيث امتازت بقوة اللفظ وجزالته، وتوازن عباراته، فقد كان فصيح الكلمة بليغ اللسن.

ومن ثم نجد الخطباء في هذا العصر ساروا في خطاباتهم على ما كان عند الجاهليين، وبعد ظهور الإسلام بدا أثر القرآن الكريم واضحًا في كلام الأمويين، وأهم ما اتسمت به الخَطابة عذوبة ألفاظها وسهولة أسلوبها وانتهاجها منهج القرآن الكريم، في الإرشاد والإقناع.

ومما سبق تبين لنا من خلال هذا التمهيد أن الخَطابة السياسية ضرورة ماسة لا غنى عنها في الحركة السياسية التي ازدهرت في العصر الأموي وتعاظمت في أواخره؛ ونتيجة لذلك توسع انتشار الخطابة توسعا ظاهرًا.

(١) الأمالي أبو علي القالي، ترتيب محمد عبد الجواد الأصمعي ٣١١/٢ دار الكتب المصرية ط/٢، ١٩٢٦م.

•التعريف بالحجاج بن يوسف الثقفي (٤١هـ -٩٥هـ)

الحجاج بن يوسف هو:" أبو محمد الحجاج بن يوسف بن الحكم بن أبي سعد ابن عوف بن ثقيف" (١) وكان فيما قبل " يسمى كليبا، ثم سمي بالحجاج " (٢). كان مولده بالطائف (سنة٤١هـ -٦٦١م)، أبوه هو الحكم بن أبي عقيل بن مسعود بن عامر، وأمه الفارعة بنت همام بن عروة بن مسعود الصحابي المشهور(٣).

وهو قائد أموي، داهية، خطيب، ولد ونشأ في أسرة مثقفة، وكان هو وأبوه يعلمان الصبيان بالطائف القرآن الكريم، ثم انتقل إلى الشام وقد تختلف الأسباب التي دفعت الحجاج إلى اختيار الشام مكانًا ليبدأ طموحه السياسي منه رغم بعد المسافة بينها وبين الطائف، وقرب مكة إليه، لكن يُعتقد أن السبب الأكبر كراهته لولاية عبد الله ابن الزبير.

وفي الشام التحق بشرطة الإمارة وكانت الشرطة في حالة سيئة وتعاني من مشاكل جمة، منها سوء التنظيم، واستخفاف أفراد الشرطة بالنظام، وقلة المجندين. فأبدى حماسة وانضباطًا، وسارع إلى تنبيه أولياء الأمر لكل خطأ أو خلل، وأخذ نفسه بالشدة، فقربه رَوْح بن زِنْباع(٤)-قائد الشرطة- إليه، ورفع مكانته، ورقاه فوق أصحابه، فأخذهم بالشدة، وأسرف في عقوبة المخالفين، وعاقبهم لأدنى خلل، فضبطهم، وسير أمورهم بالطاعة المطلقة لأولياء الأمر.

فما عاد منهم تراخٍ ولا لهوٍ إلا جماعة رَوْح بن زِنْبَاع، فجاء الحجاج يومًا على رؤوسهم وهم يأكلون، فنهاهم عن ذلك في عملهم، لكنهم لم ينتهوا، ودعوه معهم إلى طعامهم، فأمر بهم، فَحُبِسُوا، وأُحرِقَت سرادقهم. فشكاه رَوْح بن زِنْبَاع إلى الخليفة، فدعا الحجاج وسأله عمَّ حمله على فعله هذا ؟، فقال: إنما أنت مَنْ فَعَلَ

---

(١) الكامل في التاريخ، ابن الأثير، تحقيق: محمد يوسف الدقاف٤/ ٢٨٤، دار الكتب العلمية بيروت لبنان ط/١، ١٩٨٧م.

(٢) البداية والنهاية، عماد الدين بن كثير القرشي، تحقيق: حان عبد المان١/ ١٣٩٧ ، بيت الأفكار الدولية، عمان الأردن، ط/ ١.

(٣) الحجاج بن يوسف الثقفي حياته، أخباره، سامر محي الدين أمين ص: ١٥ ، دار المستقبل، عمان، الأردن، ط/٥، ٢٠١٢م.

(٤) هو: ابن سلامة الجذامي أبو زرعة ويقال: أبو زِنْبَاع الدمشقي، وهو تابعي جليل، روى عن أبيه، كان روح عند عبد الملك كالوزير لا يكاد يفارقه، وكان مع أبيه مروان يوم مرج راهط وقد أمّرَه يزيد بن معاوية على= =جند فلسطين، مات سنة أربع وثمانين بالأردن، وزعم بعضهم أنه بقى إلى أيام هشام بن عبد الملك. انظر البداية والنهاية ابن كثير ١/ ١٣٩٦.

يا أمير المؤمنين، فأنا يدُكَ وسوْطُكَ، وأشار عليه بتعويض رَوْح بن زِنْبَاع دون كسر أمره(١).

ومن ثم رأى رَوْح بن زِنْبَاع فيه العزيمة والقوة الماضية، فقدمه إلى الخليفة عبد الملك بن مروان، وكان عبد الملك بن مروان قد قرر تسيير الجيوش لمحاربة الخارجين على الدولة، فضم الحجاج إلى الجيش الذي قاده بنفسه لحرب مصعب ابن الزبير.

ولم يكن أهل الشام يخرجون في الجيوش، فطلب الحجاج من الخليفة أن يسلطه عليهم، ففعل. فأعلن الحجاج أن أيّما رجل قدر على حمل السلاح ولم يخرج معه، أمهَله ثلاثًا، ثم قتله، وأحرق داره، وانتهب ماله، ثم طاف بالبيوت باحثًا عن المتخلفين. وبدأ الحجاج بقتل أحد المعترضين عليه، فأطاعه الجميع، وخرجوا معه، بالجَبْرِ لا بالاختيار، فلفت الحجاج بذلك أنظار الخليفة عبد الملك، ورأى فيه شدة وحزما، فبعثه لقتال عبد الله بن الزبير، فزحف إلى الحجاز بجيش كبير وقتل عبد الله وفرق جموعه (٢).

ثم ما زال يظهر حتى ولاه عبد الملك مكة والمدينة والطائف، ثم أضاف إليها العراق والثورة قائمة فيه، فانصرف إلى الكوفة فقمع الثورة وثبتت له الإمارة عشرين سنة. حيث جمع الدولة الأموية وحماها من السقوط.

ولايته على العراق:

وَلَّي عبد الملك بن مروان الحجاج بن يوسف الثقفي نيابة العراق والبصرة والكوفة وما يتبع ذلك من الأقاليم الكبار سنة ٧٥ هـ، وذلك " بعد موت أخيه بشر بن مروان، فرأى عبد الملك أنه لا يسد عنه أهل العراق غير الحجاج لسطْوته وقهْره وقسْوته وشهامته، فكتب إليه وهو بالمدينة ولاية العراق".(١)

ودامت ولاية الحجاج على العراق عشرين عامًا كاملًا، فتح فيها فتوحات كثيرة، هائلة منتشرة، حتى وصلت خيوله إلى بلاد الهند والسند، ففتح فيها جملة مدن وأقاليم لتوسيع رقعة الدولة الإسلامية.(٢)

وكانت العراق في ذلك الوقت عراقين، عراق العرب وعراق العجم، فنزل الحجاج بالكوفة، وكان قد أرسل من أمر الناس بالاجتماع في المسجد، ثم دخل

---

(١) البداية والنهاية ابن كثير ١/ ١٣٩٧.

(٢) الحجاج بن يوسف الثقفي، عمر فروخ ص٣ ، مكتبة الكاشف بيروت لبنان ، ط/ ١٩٤١م.

(١) البداية والنهاية ابن كثير ١/ ١٣٥٠.

(٢) البداية والنهاية ابن كثير ١/ ٢٧٨.

المسجد ملثّمًا بعمامة حمراء، واعتلى المنبر فجلس وأصبعه على فمه ناظرًا إلى المجتمعين في المسجد، فلما ضجُّوا من سكوته خلع عمامته فجأة وقال خطبته المشهورة. والتي بدأها بقوله:

أنَا ابْنُ جَــلاَ وطَلاَعُ الثَّنايَا مَتَى أَضَعُ العِمامَةَ تَعْرِفُونِي.

أما والله إني لا أحمل الشر بحمله، وأحذوه بنعله، وأجزيه بمثله... ".[٣]

وتعد خطبته هذه من أشهر ما قاله الحجاج، فبواسطتها أدخل الرعب في قلوب جميع من كانوا في المسجد، فهي تنم عن قوة وقسوة الحجاج، ولقد استطاع الحجاج بشدته هذه أن يعيد الأمن والاستقرار إلى العراق وتثبيت الحكم الأموي فيها.

وفاته:

توفى الحجاج في خمس وعشرين من رمضان من سنة خمس وتسعين للهجرة (٩٥هـ) "متأثرًا بسرطان المعدة، ومات في مدينته التي أسسها واسط، وأجري على قبره الماء، فاندرس.". [١]

(٣) العقد الفريد ابن عبد ربه الأندلسي، تحقيق: عبد المجيد الترحيني ، ٥/ ٢٧٨ ، دار الكتب العلمية بيروت لبنان ط/ ١، ١٩٨٣م.

(١) الحجاج بن يوسف الثقفي المفترى عليه، محمود زيادة ص٨٣,٨٢. ط/١، ١٩٩٥م. دار السلام.

موقعة دير الجماجم[١] (٨٣ هـ)

نظرًا لأهمية خطبة دير الجماجم، وما ينطوي عليها من سمات وخصائص فنية، وما تزخر بها من مفاهيم نقدية، وصور بيانية جعلتها في صدارة النصوص النثرية الجديرة بالدراسة، سوف نُفصِّل القول في أحداث تلك الموقعة؛ لأن أحداثها تُعينُنا على إظهار خصائص السمات البلاغية ومفاهيم النقد المختلفة في النص الخطابي عند الحجاج والتي أضفت عليه لمسة جمالية فريدة.

و"**دير الجماجم**" منطقة تقع بين البصْرة والكُوفة في العراق. وكان أحد القادة والشخصيات المهمة في العراق على زمن الحجاج هو عبد الرحمن بن الاشعث الكندي، وكان الحجاج بن يوسف الثقفي واليا في العراق ورغم تبعيته لأمير المؤمنين عبد الملك بن مروان الخليفة الأموي في ذلك الوقت، لكنه يتصرف في العراق كحاكم مستقل تمام الاستقلال. ومن ثم وجه الحجاج ابن الأشعث وكلفه بعدة مهام، وولاه كذلك إمارة بلاد ما يعرف بـ(سجستان) وهي شمال شرق العراق اليوم، وكان ابن الأشعث من القادة البارزين والزاهدين المتدينين.

أرسل الحجاج، عبد الرحمن بن محمد بن الاَشعث إلى سجستان على رأس جيش عراقي وقد فتحوا من البلاد شيئًا كثيرًا، وكتب القائد في النهاية إلى الحجاج أنّ رأيه إيقاف الحرب في هذه البلاد حتى يعرفوا طريقها، ويَجْبُوا خَراجِها، ولما وصل الكتاب إلى الحجاج كتب إليه كتابًا وبّخه فيه على إيقاف الحرب، ثم أردفه بكتاب ثانٍ وثالث يأمره بالتوغّل في الحرب وأنّه إن أظهر العجز فالإمارة إلى أخيه إسحاق بن محمد.

ولما وصلت كتب الحجاج إلى عبد الرحمن جمع أصحابه وقال: " أيّها الناس! إنّي لكم ناصح ولصلاحكم مُحب، ثم ذكر ما دار بينه وبين الحجاج عن طريق الكتب، وأنّه أمره بالتوغل في الحرب في أرض العدو، وهي البلاد التي هلك فيها إخوانكم بالأمس، وقال: إنّما أنا رجل منكم أمضي إذا مضيتم، وآبي إذا أبيتم. فثار إليه الناس فقالوا: لا بل نأبى على عدوّ اللّه، ولا نسمع له ولا نطيع."[١]

---

(١) دير الجماجم: بظاهر الكوفة على سبعة فراسخ منها على طرف البرّ للسالك إلى البصرة قال أبو عبيدة: الجمجمة: القدح من الخشب وبذلك سمُيَ دير الجماجم لأنه يعمل فيه الاَقداح من الخشب ، انظر معجم البلدان، ياقوت بن عبد الله الحموي ٢|٥٠١ ، دار صادر بيروت ١٩٩٣م.

(١) البداية والنهاية ١/ ٤٤٨.

ثم خرج عبد الرحمن من سجستان مقبلاً إلى العراق، فلمّا دخل فارس اجتمع الناس بعضهم إلى بعض وقالوا: إنّا إذا خلعنا الحجاج عامل عبد الملك فقد خلعنا عبد الملك، فاجتمعوا إلى عبد الرحمن فبايعوه على كتاب اللّه وسنّة نبيّه وخلع أئمة الضلالة وجهاد المحلّين.

ومن ثم خرج علي الحجاج وأعلن عصيانه سنة ٨٢هـ، والتفّ إليه أهل العراق الراغبون بالتخلص من استبداد الحجاج، ثم بعد وقوع اشتباكات عنيفة بين عبد الرحمن وجنود الحجاج، دخل عبد الرحمن البصرة، وبايعه الناس من كهولها وقرائها على حرب الحجاج وخلع عبد الملك وكان ذلك في آخر ذي الحجّة من سنة ٨١هـ، فصارت الحرب في الحقيقة بين الشاميين يرأسهم الحجاج، والعراقيين يقودهم عبد الرحمن.

مضى ابن الأَشعث إلى جانب الكوفة والحجاج خلف عبد الرحمن بن أبي ليلى الفقيه إلى أن حصل التقابل بين الجندين في دير الجماجم، فلمّا حمل أهل الشام على العراقيين ناداهم عبد الرحمن ابن أبي ليلى، فقال: يا معشر القرّاء إنّ الفرار ليس بأحد من الناس بأقبح منه بكم، إنّي سمعت عليّاً رفع اللّه درجته في الصالحين وأثابه أحسن ثواب الشهداء والصدّيقين، وقال يوم التقي بأهل الشام: «أيّها المؤمنون إنّه من رأى عدوانًا يعمل به، ومنكرًا يدعى إليه فأنكره بقلبه، فقد سَلِم، وبرِئ، ومن أنكر بلسانه فقد أُجِر وهو أفضل من صاحبه، ومن أنكر بالسيف لتكون كلمة اللّه العليا وكلمة الظالمين السفلى، فذلك الذي أصاب سبيل الهدى ونوّر قلبه باليقين، فقاتلوا هؤلاء المحلّين المحدثين المبتدعين الذين قد جهلوا الحقّ فلا يعرفونه وعملوا بالعدوان فليس ينكرونه."(١)

ومن ثم كانت المبارزة في كل يوم بينهم واقعة، وفي غالب الأيام تكون النصرة لأهل العراق على أهل الشام، حتى قيل إن أصحاب ابن الأشعث وهم أهل العراق كسروا أهل الشام وهم أصحاب الحجاج بضعا وثمانين مرة ينتصرون عليهم.

ومع هذا فالحجاج ثابت في مكانه صابر ومصابر لا يتزحزح عن موضعه الذي هو فيه، بل إذا حصل له ظفر في يوم من الأيام يتقدم بجيشه إلى نحو عدوه، وكان له خبرة بالحرب، وما زال ذلك دأبه ودأبهم حتى أمر بالحملة على

(١) تاريخ الرسل والملوك، الطبري ، ٥|١٤٥، ١٦٣.

كتيبة القراء الذين كانوا يحرضون الناس على القتال فجمع الرماة من جيشه وحمل بهم، وما انفكَّ حتى قتل منهم خلقا كثيرا.

ثم حمل على ابن الأشعث وعلى من معه من الجيش فانهزم أصحاب ابن الأشعث وذهبوا في كل وجه، وهرب ابن الأشعث من بين أيديهم ومعه قليل من الناس، فأتبعه الحجاج بجيش كثيف فساقوا وراءهم يطاردونهم لعلهم يظفرون به قتيلا أو أسيرا، وبهذا يكون الحجاج وبعد سلسلة من المعارك الضارية هزم ابن الاشعث وقتله سنة ٨٣هـ، وقتل معه كثير من أهل العراق.

فـ" دير الجماجم " والتي اختصها الحجاج بخطبته كانت علمًا على معركة دامية، هُزم فيها جيش الحجاج بسبب تودد أهل العراق في ثورتهم التي رفع رايتها عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث، وقد تبعه قوم كثير، ولكن الغلبة كانت أخيرًا للحجاج لثباته وحنكته.

يقول المؤرخون(١): لما أسرف الحجاج في قتل أسْرى دير الجماجم وإعطائه الأموال بلغ ذلك عبد الملك فكتب إليه: أمّا بعد: " فقد بلغ أمير المؤمنين إسرافك في الدماء وتبذيرك في الأموال ولا يحتمل أمير المؤمنين هاتين الخصلتين لأحد من الناس، وقد حكم عليك أمير المؤمنين في الدماء في الخطأ الدِّيَة وفي العمد القَوَد، وفي الأموال ردّها إلى مواضعها..." فلمّا بلغ كتاب عبد الملك إليه كتب إليه في الجواب: واللّه ما عليَّ من عقل ولا قود، ما أصبتُ القوم فأدِيَهُم، ولا ظلمتهم فأُقاد بهم، ولا أعطيتهم إلاّ لك، ولا قتلت إلاّ فيك..." (٢)

وبعد أن تحدثنا عن الاطار التاريخي والأدبي للعصر الأموي، سوف نتحدث – **بمشيئة الله تعالى** – عن السمات البلاغية في خطبة دير الجماجم لاستخراج دررها ولآلئها التي تعيننا على فهم النص النثري في ذلك العصر.

(١) تاريخ الرسل والملوك، الطبري ، ٥|١٤٥، ١٦٣.

(٢) مروج الذهب ومعادن الجوهر، أبي الحسن بن علي المسعودي، راجعه: كمال حسن مرعي، ٣|١٣٤ . ١٣٥، الناشر: المكتبة العصرية – بيروت لبنان ط/١ ، ٢٠٠٥م.

•الفصل الأول:

نداءات الحجاج لأهل العراق " بين البلاغة والدلالة والنقد".

- المبحث الأول: السمات البلاغية في النداء الأول.
- المبحث الثاني: الفنون البلاغية في النداء الثاني.
- المبحث الثالث: الأسرار البلاغية في النداء الثالث والرابع.
- المبحث الرابع: دلالة الاستفهام في نداء الحجاج لأهل العراق.

الفصل الأول:

نداءات الحجاج لأهل العراق "بين البلاغة والدلالة والنقد".

مفهوم البلاغة:

تدور أصل مادة كلمة البلاغة حول وصول الشيء إلى غايته ونهايته، تقول: بلغ الشيء يبلُغ بُلُوغًا وبَلاَغًا: إذا وصل وانتهى إلى غايته وتقول: أبلغت الشيء إبلاغًا وبلاغًا، وبلغته تبليغًا، إذا أوصلته إلى مراده ونهايته[١].

وبلاغة الكلام: "مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته "[٢]، أي: حال من يُخاطب به، مع فصاحة مفرداته وجمله، وإصابته مواقع الاقتناع من العقل، والتأثير من القلب.

وانطلاقًا من هذا فالبلاغة من حيث إنها تأدية المعنى الجليل بعبارة صحيحة فصيحة، لها في النفس أثر خلاب، فهي بالتالي تُحدّد القوانين التي تحكم النص الأدبي، والتي ينبغي أن يتبعها الأديب في تنظيم أفكاره وترتيبها، وفى اختيار كلماته والتأليف بينها في نسق صوتي معين ؛ لأنها تحتوي على مجموعة الأسس الجمالية التي يستعان بها في الحكم على قيمة عمله الأدبي، مع مراعاة ملاءمة كل كلام للموطن الذى يقال فيه، والأشخاص الذين يخاطبون ؛ لأن بها يتم البحث عن فنية القول في النص الأدبي المعبر عن الإحساس بالجمال.

والبلاغة على هذا هي جملة من القواعد والمعايير التي ينبغي مراعاتها عند إنشاء العمل الأدبي؛ حتى يكون عملاً فنيًا ممتعًا، ومؤثرًا في نفس القارئ ومشاعره، بمثل ما هو عليه في نفس الأديب ذاته ومشاعره.

ومن ثم فالبلاغة فنّ يقوم على استخدام الكلام الجميل، المؤثر في النفس، والملائم للمعنى، وتستهدف توضيح الطرق التي يمكن بها تنظيم الكلام، بحيث يتيح لأفكار الأديب أن تنتقل إلى القارئ أو السامع على أكمل وجه ممكن.

وتتضمن البلاغة فنونًا ثلاثة: " فن البيان ؛ ويبحث في كيفيات تأدية المعنى الواحد بطرق تختلف في وضوح دلالتها، وتختلف في صورها وأشكالها، وما تتصف به من إبداع وجمال أو قبح وابتذل، وفن المعاني؛ ويعرف به أحوال الكلام

(١) لسان العرب: مادة: " بلغ" ١/٤٩٨.

(٢) شروح التلخيص ١/ ١٢٢، دار الكتب العلمية بيروت – لبنان.

العربي التي تهدى العالِم بها إلى اختيار ما يُطابق منها مقتضى أحوال المخاطبين، رجاء أن يكون ما يُنشئ من كلام أدبيٍّ بليغ. وفن البديع؛ وتعرف به المحسنات الجمالية المعنوية واللفظية المنثورة التي لم تُلْحق بفن المعاني ولا فن البيان.

ولكى تتحقق الإفادة من هذه الفنون البلاغية في تربية القدرة على الإحساس بعناصر الجمال الأدبي في النصوص الأدبية الرفيعة، ينبغي أن تدرس بطريقة تحليلية تكشف عن جوانب الجمال والإبداع في النصوص الأدبية الراقية، وتهتم بالصورة البلاغية التي تضفى جمالاً على اللفظ والمعنى ؛ حيث يكون لها أثر في تحريك المشاعر، وانفعال الوجدان.

ومن خلال مفهوم البلاغة سوف نحلّل خطبة دير الجماجم، من حيث ما ورد فيها من مصطلحات بلاغية، لإظهار أهمية البلاغة ومنزلتها بين فنون اللغة العربية ومهاراتها، بما تؤديه من وظائف أساسية، أهمها تمكين المتكلم من القدرة على التعبير السليم والمؤثر؛ وبالتالي تنمية الإبداع اللغوي لدى المستمع، لتذوق الجمال الفني في النتاج الأدبي.

نص خطبة الحجاج بن يوسف الثقفي بعد دير الجماجم.

يقول الجاحظ [١]: " خطب الحجاج أهل العراق بعد دير الجماجم فقال:

(يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ، إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدِ اسْتَبْطَنَكُمْ، فَخَالَطَ اللَّحْمَ وَالدَّمَ وَالْعَصَبَ وَالْمَسَامِعَ وَالْأَطْرَافَ والأعضاءَ والشَّغَافَ، ثُمَّ أَفْضَى إِلَى الأفْخَاخِ والأصْمَاخِ، ثُمَّ ارْتَفَعَ فَعَشَّشَ، ثُمَّ بَاضَ وَفَرَّخَ، فَحَشَاكُمْ نِفَاقًا وَشِقَاقًا، وَأَشْعَرَكُمْ خِلَافًا، اتَّخَذْتُمُوهُ دَلِيلًا تَتَّبِعُونَهُ، وَقَائِدًا تُطِيعُونَهُ، وَمُؤَامِرًا تَسْتَشِيرُونَهُ. فَكَيْفَ تَنْفَعُكُمْ تَجْرِبَةٌ؟ أَوْ تعِظُكُمْ وقْعَةٌ؟ أو يحجزُكم إسلامٌ، أَوْ يَنْفَعُكُمْ بَيَانٌ؟ أَلَسْتُمْ أَصْحَابِي بِالْأَهْوَازِ حَيْثُ رُمْتُمُ الْمَكْرَ، وسعيتم بالغَدْرِ، واستجمعتُم للكفرِ، وَظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ يَخْذُلُ دِينَهُ وَخِلَافَتَهُ ؟! وَأَنَا أَرْمِيكُمْ بِطَرْفِي وَأَنْتُمْ تَتَسَلَّلُونَ لِوَاذًا[٢]، وَتَنْهَزِمُونَ سِرَاعًا.

ثُمَّ يَوْمُ الزَّاوِيَةِ، وَمَا يَوْمُ الزَّاوِيَةِ؟! بِهَا كَانَ فَشَلِكُمْ وَتَنَازُعِكُمْ وَتَخَاذُلِكُمْ، وَبَرَاءَةِ اللَّهِ مِنْكُمْ، ونُكوصِ وليِّكم عنكم، إِذْ وَلَّيْتُمْ كَالْإِبِلِ الشَّارِدَةِ إلى أَوْطَانِهَا، النَّوَازِعِ إلى أعطانها[٣]، لَا يَسْأَلُ الْمَرْءُ عَنْ أَخِيهِ، وَلَا يَلْوِي الشَّيْخُ عَلَى بَنِيهِ، حَتّى عَضَّكُمُ السِّلَاحُ، وَقَصَمكُم الرِّمَاحُ.

ثُمَّ يَوْمُ دَيْرِ الْجَمَاجِمِ، وَمَا يَوْمُ دَيْرِ الْجَمَاجِمِ ؟، بِهَا كَانَتِ الْمَعَارِكُ وَالْمَلَاحِمُ، بِضَرْبٍ يُزِيلُ الْهَامَ عَنْ مَقِيلِهِ، وَيُذْهِلُ الْخَلِيلَ عَنْ خَلِيلِهِ.

يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ، الْكَفَرَاتِ بَعْدَ الْفَجَرَاتِ، وَالْغَدَرَاتِ بَعْدَ الْخَتَرَاتِ، وَالنَّزْوَةِ بَعْدَ النَّزَوَاتِ، إِنْ بُعِثْتم إِلَى ثُغُورِكُمْ، غَلَلْتُمْ وَخُنْتُمْ، وَإِنْ أَمِنْتُمْ أَرَجَفْتُمْ، وَإِنْ خِفْتُمْ نَافَقْتُمْ، لَا تَذْكُرُونَ حَسَنَةً، ولا تَشْكُرُونَ نِعْمَةً.

هَلِ اسْتَخَفَّكُمْ نَاكِثٌ أَوِ اسْتَغْوَاكُمْ غَاوٍ، أَوِ اسْتَنْصَرَكُمْ ظَالِمٌ، أَوِ اسْتَعْضَدَكُمْ خَالِعٌ، إلاّ تبِعتموه وآوَيْتُموه، ونصرتُموه ورحبتمُوه.

يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ، هَلْ شَغَبَ شَاغِبٌ، أَوْ نَعَبَ نَاعِبٌ، أَوْ زَفَرَ زَافِرٌ إِلَّا كُنْتُمْ أَتْبَاعَهُ وَأَنْصَارَهُ ؟ يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ، أَلَمْ تَنْهكُمُ الْمَوَاعِظُ ؟، أَلَمْ تَزْجُرْكُمُ الْوَقَائِعُ ؟ !.

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ، تحقيق د/ درويش جويدي، ٢/ ٣٠١.

(٢) لواذًا: هربًا ، لجأ إليه وعاذ به. اللسان مادة " لوذ" ، ٨/ ١٥٥

(٣) أعطانها: مراحلها حيث تستريح. اللسان مادة " عطن" ٦/ ٣١٧,٣١٦.

ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَى أَهْلِ الشَّامِ فَقَالَ: يَا أَهْلَ الشَّامِ، إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ كَالظَّلِيمِ الرَّامِحِ عَنْ فِرَاخِهِ، يَنْفِي عَنْهَا المدَرَ، وَيُبَاعِدُ عَنْهَا الْحَجَرَ، وَيُكِنُّهَا [١] مِنَ الْمَطَرِ، وَيَحْمِيهَا مِنَ الضِّبَابِ، وَيَحْرُسُهَا مِنَ الذُّبَابِ، يَا أَهْلَ الشَّامِ، أَنْتُمْ الْجُنَّةُ [٢] والرِّداءُ، وأَنْتُمُ العُدَّةُ وَالْحِذَاءُ.) [٣].

(١) يكنها: يحفظها أي: يجعلها في ملجأ أمين. اللسان مادة " كنَّ" ٧٤٦/٧.
(٢) الجنة: الترس ، الوقاء ، والدرع وكل ما وقاك، اللسان مادة "جنن" ٢٣١/٢.
(٣) انظر البيان والتبيين ٢/ ٣٠١، ٣٠٢.

المبحث الأول:
السمات البلاغية في النداء الأول.

- **النداء الأول:**

إنّ بين كل أسلوب من أساليب النداء الستة التي احتوت عليها خطبة دير الجماجم أسرار بلاغية عديدة، تتفاوت حسب السياق وقرائن الأحوال، إذ كل نداء كان له حالة خاصة يريد الحجاج إظهاره، ليحكي من خلاله أحداث معركة يوم الزاوية ودير الجماجم.

والنداء الأول: اشتمل على الدلالة الرمزية المفردة المتمثلة في قول الحجاج: "**الشَّيْطَان**"، والذي أراد الحجاج أن يبين من خلاله مدى اختلاط أهل العراق بهذا "**الشَّيْطَان**"، والذي كان رمزًا لقائد معركة يوم الزاوية ومعركة دير الجماجم، فأظهر من خلال ندائه مدى سيطرة ذلك **الشَّيْطَان عليهم** فافتتح خطبته بقوله: **(يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ، إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدِ اسْتَبْطَنَكُمْ، فَخَالَطَ اللَّحْمَ وَالدَّمَ وَالْعَصَبَ وَالْمَسَامِعَ وَالْأَطْرَافَ والأعضاءَ والشَّغَافَ، ثُمَّ أَفْضَى إِلَى الأَفْخَاخِ والأَصْمَاخِ، ثُمَّ ارْتَفَعَ فَعَشَّشَ، ثُمَّ بَاضَ وَفَرَّخَ، فَحَشَاكُمْ نِفَاقًا وَشِقَاقًا، وَأَشْعَرَكُمْ خِلَافًا، اتَّخَذْتُمُوهُ دَلِيلًا تَتَّبِعُونَهُ، وَقَائِدًا تُطِيعُونَهُ، وَمُؤَامِرًا تَسْتَشِيرُونَهُ).**

ومن ثم بدأ الحجاج بداية مميزة تتصل بغرضه، وما يتناسب مع الجو النفسي للخطبة، حيث استهلها بأسلوب النداء فقال:" **يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ** " ومن ثم جعل أول الكلام رقيقًا سهلا واضح المعاني مستقلا عما بعده، مناسبًا للمقام، بحيث يجذب السمع إلى الإصغاء بكليته، فأرسل نفسه على سجيتها في التعبير عن خلجات نفسه ليحقق نوعًا من اللفت، والتنبيه، والتشويق الذي يضمن به الإنصات.

ولم ينادِ الحجاج أهل العراق وهو في معزلٍ عنهم، بل كان على علم بموقفهم منه، ومدى معاونتهم لهذا الشيطان الذي استبطنهم، لِيُسَجِّلَ عليهم تمردهم.

فالعلاقة بين الحجاج وأهل العراق هي من أكثر العلاقات تعقيدًا وطرافة، ومن أكثرها ترويعًا في التاريخ الإسلامي، فالحجاج وُلّيَ على العراق كارهًا لأهلها، وهُم له كارهون.

ثم ازداد المطلع حسنًا عندما دلَّ على المقصود بالإشارة لا بالتصريح في قوله: " **إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدِ اسْتَبْطَنَكُمْ**"، وبنية الاستهلال هنا تشير إلى تجربة الحجاج النفسية وإلى الواقع الاجتماعي والظرف الداعي لبروز خطبته، فضلا عن

الموروث الثقافي الذي يتمتع به الحجاج في عصره، حيث كان مليئًا بالفتن والصراعات والثورات، ومن ثم اكتملت فيه عناصر الخطبة السياسية.

ومن هنا برع الحجاج في مطلع خطبته بإيثار تلك المقدمة النارية، والتي من خلالها وصف أهل العراق بوصف الخبير المجرب العالم بأحوالهم، عندما ظن من شدة ما لقى منهم أن الشيطان نفسه قد استبطنهم فخالط اللحم والدم والعصب والمسامع والأطراف....

ففي المطلع حسن ابتداء، وبراعة استهلال من حيث أن الخطيب ابتدأ كلامه بالإشارة إلى ما سيق الكلام لأجله في بقية الخطبة، فقد جاء مطلع الخطبة دالاً على ما يُنبِت عليه مشعرًا بغرض الناظم من غير تصريح بل بإشارة لطيفة، وقد أشار البلاغيون إلى دور هذا المحسن في التأثير على المتلقي، وجعلوه من محسنات الكلام. وما سمى هذا النوع براعة الاستهلال.[١] إلا لأن المتكلم يفهم غرضه من كلامه عند ابتداء رفع صوته به.

وآثر الحجاج الأسلوب الإنشائي الطلبي المعبر عنه بالنداء في بداية حديثه بقوله: "**يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ**" والذي خرج من معناه الحقيقي وأريد به التهديد والوعيد، ليحقق لنا فاعلية التواصل بين المتكلم والمخاطب من خلال السياق، والذي يظهر لنا غرض كل منهما، فيشخص المشهد أمام المتلقي، ليذهب بعقله كل مذهب، فيتصور أن هناك حوارًا فيه حركة تجذب القاري من خلال الحوار الذي يفهم من إطلاق لفظ النداء، فكأنه نادى على أهل العراق، ثم أقبلوا عليه ليلبوا طلب النداء.

ولاستكمال مشهد الحوار آثر الحجاج أداة النداء "**يا** " دون غيرها ليطابق في ندائه الحاضر والغائب، ففيها تنزيل للحاضر منزلة الغائب. وجاء بالمضاف "**أهل**" أي: آهِلٌ بالسُّكّان الذين استقرّوا فيها، واللفظ فيه استئناس لا توحُّش، وأيضًا يدل على الملكية، فأهل المكان هم ممَّن يُقيمون فيه.

ثم جاء بالمضاف إلية لتحديد مكان الخطاب بقوله:" **العراق**" أي: سُكَّان العراق، وذلك لأن العراق عَمُرَت بأهلها.

(١) براعة الاستهلال:" أن يشتمل أول الكلام على ما يناسب حال المتكلم فيه ويشير إلى ما سيق الكلام لأجله". ينظر الإيضاح في علوم البلاغة للقزويني ٣٩٢/١. ط/ ٤ ، ١٩٩٨ ، دار إحياء العلوم بيروت

والنداء هنا للعاقل لذا أراد أن يشخِّص صورة المخاطب بذكر المسند إليه وتعريفه بالإضافة، ثم ذكر إن وأسمها وخبرها " **إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدِ اسْتَبْطَنَكُمْ** " فيها بديع القول وسامي البيان ليُبلِّغ المخاطب غاية ما يريد. وهذه هي بلاغة البيان المتمثلة في إثارة المتلقي.

إن الجملة الأولى" **يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ** " والثانية " **إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدِ اسْتَبْطَنَكُمْ** " تجيبان معا عن سؤال واحد ماذا تريد؟ ولكن طريقة اختيار الكلمات " **أَهْلَ الْعِرَاقِ، الشَّيْطَانَ، اسْتَبْطَنَكُمْ، فَخَالَطَ، أَفْضَى.**" تؤكد أسلوبين:

١- أسلوب ينتمي إلى اللغة الطبيعية غايته إبلاغ رسالة واضحة تحقق تواصلا بين المتكلم والمخاطب بواسطة لغة تقريرية مباشرة.

٢- أسلوب يميل إلى خرق علاقة مألوفة بين الكلمة ودلالتها المعتادة في اللغة الطبيعية، فإذا كانت "الولاية" شيئا ماديا ينتقل ملكيته من شخص لآخر، فإن "أهواء الشيطان" لحظة زمنية مجردة يستحيل مدها لشخص آخر، ومن ثم يحتاج المتلقي إلى تأويل المعنى بالنظر إلى السياق العام الذي جاءت فيه كلمة: " **الشَّيْطَان**" ويسمى ذلك بالانزياح[١].

والبلاغة هي التعبير عن المعنى الجليل تعبيرًا يثير في نفس القارئ والسامع مشاعر وخواطر تؤثر فيه، وتحمل إليه المتعة بما في التعبير من جمال الأداء مع ملاءمة الكلام للموطن الذي يقال فيه، والأشخاص الذين يوجه إليهم هذا الكلام.

وبما أن المقام مقام حزم فقد استخدم الحجاج المؤكدات بكثرة لإرهاب أهل العراق وإظهار مناحي الإخفاق فيهم، بقوله: "**إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدِ اسْتَبْطَنَكُمْ**" لإفادة المخاطب الحكم الذي تضمنه الخبر ذلك فيما إذا كان المخاطب جاهلاً، (فائدة الخبر). وعلى الرغم من مجيئ الخبر مؤكدًا بـ" **إِنَّ**" الناصبة و"الجملة الإسمية" وحرف " **قَد**" لكن ربما يؤكد الخبر لشرف الحكم، ولم يكن المخاطب مترددًا أو منكرًا، كقولك: (إن النجاةَ في الصدقِ) [٢]. فإذا جاء التأكيد على حسب ما ذكرنا، سمي الكلام: مطابقاً لمقتضى الظاهر.

---

(١) الانزياح لغة "التباعد والذهاب واصطلاحا خرق المألوف في اللغة الطبيعية والخروج عنه، أو خرق توقع المتلقي أي أفق انتظاره. انظر: الأسلوبية والأسلوب ، عبد السلام المسدي ص١٠٢، الدار العربية للكتاب ، تونس ط/ ٢، ١٩٨٢م.

(٢) بحار الأنوار، محمد باقر المجلسي، ٧٠/١٤ ، ط / إحياء الكتب الإسلامية بيروت.

أما اذا لم يكن تأكيد الحجاج في مورد التأكيد،- جاء بالتأكيد في غير مورده- ، فإن كان هناك اعتبار بلاغي كان حسنًا، لذا جاء بالجملة مؤكدة لتنزيل المتردد منزلة المنكر، للتوبيخ أو التذكير بأمر، أو التحذير، أو التهديد والوعيد. وأرى ذلك حسنًا لشدة تأكيد الحجاج في خطابه، ولو لم ينزَّل كان التأكيد الواحد كافيًا.

والجملة الإسمية هنا، وهي ما تركبت من " إن الناصبة واسمها وخبرها الفعلي"، أفادت التجدد، لوجود القرينة على ذلك وهي جملة:" **اتَّخَذْتُمُوهُ دَلِيلًا تَتَّبِعُونَهُ** ".

لذا جاءت تلك الجملة مفصولة عن الجملة الأولى" **يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ** " لشبه كمال الاتصال وكأن سائلا سأل ماذا تريد ؟ فأجاب الحجاج أريد أن أوضح لكم وأظهر لكم أن بينكم مفسد غاو يريد إفساد حياتكم.

ومن ثم آثر لفظ " **الشَّيْطَانَ** " دون غيره لأنه من شطن أي بعد عن رحمة الله(١)، وإما أن يراد به " إبليس"، وهو روح شرِّير مغوٍ بالفساد، وإما أن يريد به كلُّ متمرِّد مفسد.

ومن هنا أعطى المتكلم المتلقي مجالًا لإعمال ذهنه، من خلال الحروف الأتية: "الشين و الياء" وهما من الحروف الشجرية، و"الطاء" وهي من حروف الإطباق لما فيها من تلاصق ما يحاذي اللسان من الحنك الأعلى عند النطق بالحرف، وهي من أقوى الحروف تفخيمًا على الإطلاق، وتسمى بالحروف النطعية لمجاورة مخرجها نطع الغار الأعلى وهو سقفه (٢)، وهو المكان الذي يرى به أثار، ثم يأتي بحرف بـ "ألف المد" لكي يفصل بين حرف الإطباق وحرف الإذلاق " النون" لما فيه من سرعة النطق بالحرف لخروجه من طرف اللسان.

وهذا كله يصور لنا طريقة إلقاء الحجاج بن يوسف لخطبته لكي يحدث التواصل بين المتكلم والمخاطب من خلال إظهار حركة مخارج الحروف وهذا يدل على الجرس الموسيقي لتلك الكلمات، فإنَّ لغة الخطابة لغة موسيقية زاخرة بالنغم

(١) اللسان، مادة: "شطن" ٥/ ١١٤، ١١٥.

(٢) نسبة إلى شجر الفم وهو ما اتسع منه، انظر: باب في مخارج الحروف وصفاتها من كتاب " كيف يتلى القرآن "للشيخ عامر بن السيد عثمان، تحقيق: أحمد بن محمد بن مأمون ص١٣٠،ط/١، ١٩٠٠م، أولاد الشيخ للتراث. وانظر البرهان في تجويد القرآن، الأستاذ محمد الصادق قمحاوي ص٨٠ ، مع بعض التصرف والإضافات. المكتبة الثقافية بيروت لبنان.

الذي يعد جزءًا من مكوناتها المتآزرة مع التعبير اللغوي، فالألفاظ تتواكب في وحدات ترنيمية ملحنة في سياق إيقاعي يعمل على إشباع رغبات وحاجات وجدانية عميقة تجذب الآخرين إليه.

لذا تتعاقب كلمات الخطبة وتشع منها أصوات موسيقية تطرب لها الأذن، بطريقة مرتبة، فبعد ذكر " **الشَّيْطَان** " ألحقه بحرف "**قَدْ**" ثم بالفعل الماضي " **اسْتَبْطَنَكُمْ** " ليفيد التحقيق والتقريب للحالة التي هم عليها، واِستَبْطَنَ أَمْرَ صَاحِبِه: أي عَرَفَ بَاطِنَهُ وَخَفَايَاهُ، ووقف على حقيقته(١)، فأراد أن يظهر حقيقة المتآمرين عليهم، فدلت الكلمة على معان كثيرة يتجول فيها القارئ كيفما يشاء، لأنها تحمل معنى الخفاء.

وفيها أيضًا تشخيص جاء على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية حيث شبه بطانة الثوب وهي طبقة رَقيقة واقية تصنع داخل الثوب حتى لا تظهر ما وراءه(٢) بما يخفيه أهل العراق في أنفسهم واحتفظوا به في دَخيلة ذاتهم، فكأن المتآمرين استبطنوا السّرّ داخلهم للوقت المناسب لكي يطيحوا بوليّهم. أي أن الشيطان جعلكم بطانة له واستخدمكم لتحقيق أهدافه وهي الفتنة، ففتنكم بفتنة القول والعمل.

والاستِبْطانيَّة في علوم النفس هي:" المنهج الذي يعتمد التّأمّل الذَّاتيّ للحالات الشُّعوريّة" (٣) ومن هنا تظهر عملية التواصل بين المتكلم والمخاطب فاسْتِبطانُ الأمْرِ: إِخْفَاؤُهُ في النَّفْسِ، وهذا شيء شعوري يتمكن من خلجات النفس دون البوح به، ففيه

ملاحظة داخِليّة وتأمّل ذاتيّ للحالات الشعوريّة التي يحسّ بها المخاطب، مما يجعله يخفي ويكتم شعوره ويُظهر خلافَ ما يُبطن.

<u>الرمزية كاصطلاح في نداء الحجاج لأهل العراق:</u>

ينبغي الإشارة إلى أمر طالما تكرر عند الحجاج في خطبته ألا وهو البناء التصويري في جمله حيث نجد التلاقح بين التصوير الكنائي والتصوير الاستعاري، وتحديدًا الاستعارة التشخيصية في قوله:" **إن الشيطان قد استبطنكم**"

(١) المعجم الوجيز مجمع اللغة العربية ص٥٤ طبعة وزارة التربية والتعليم ٢٠٠٤م.
(٢) اللسان، مادة:" بطن" ١/٤٤٧ ، ٤٤٨.
(٣)) الصحة النفسية والإرشاد النفسي د/علاء الدين كفافي ص٢٧، ط/٢، ٢٠٠٥ دار النشر الدولي.

إذ جعل للشيطان استبطانة وقدرة على التحكم الفعلي بأهل العراق، أي خلع عليه جسدًا ليس له على وجهه الحقيقية، لأنه أراد به ابن الأشعث، مما يشكل لنا تصويرًا استعاريًا تجسيديًا.

وإذا جنحنا إلى الصورة الكنائية ينبغي أن نتعامل مع الصورة الاستعارية بوصفها الحقيقي، أو لنا أن نتخيل أنها حقيقة، وبالتالي فإن " استبطان الشيطان" بوصفها حقيقة لازمة من لوازم ابن الأشعث، المحذوف لفظًا لا دلالة من النص، وبالتالي فثمة تصوير أن أحدهما " **الشيطان**" أو "**ابن الأشعث**" يمثل لازمة من لوازم الآخر، فهما مقصودان في السياق.

ومن هذا كله تتكون عملية بناء هيكل هندسة الخطبة العربية من جرس الكلمات التي يحتويها النص والمتمثلة في الألفاظ، بضربات منظمة ومتناسقة لوزن الكلمات الداخلية ذات الذبذبات المتوافقة لانفعالات الحجاج الذي يمر بها، وهو يقوم ببناء فكرته بانتقاء ألفاظ دقيقة تعبر عن مشاعره وأحاسيسه وخلجاته المتوائمة مع موسيقى الألفاظ المتشكلة مع الخطبة.

ومن ثم يصدر لحنًا فنيًا متناسقًا له أثره الخلّاب في شد انتباه المتلقي بسبب تدفقات النغم المتولد من الألفاظ المتساوقة مع غاية الخطبة وهدفها، كما في قوله:

"**فَخَالَطَ اللَّحْمَ وَالدَّمَ وَالْعَصَبَ وَالْمَسَامِعَ وَالْأَطْرَافَ والأعضاءَ والشَّغَافَ، ثُمَّ أَفْضَى إِلَى الأفْخَاخِ والأصْمَاخِ، ثُمَّ ارْتَفَعَ فَعَشَّشَ، ثُمَّ بَاضَ وَفَرَّخَ، فَحَشَاكُمْ نِفَاقًا وَشِقَاقًا، وَأَشْعَرَكُمْ خِلَافًا، اتَّخَذْتُمُوهُ دَلِيلًا تَتَّبِعُونَهُ، وَقَائِدًا تُطِيعُونَهُ، وَمُؤَامِرًا تَسْتَشِيرُونَهُ**"

فيأتي بـ" **الفاء**" العاطفة الدالة على التعقيب والسرعة، وكأنه أراد أن لا يغفل عنه المخاطب بعد أن خاطب اللاشعور لدي المستمع، وألا يشرد منه الوصف لأنه وصف مليء بالصور التي ألقى بها الرعب في قلوب أهل العراق. وحرك الرهبة والخوف لدى السامع.

لذا آثر لفظ " **خَالَطَ** " الذي يدل على الالتباس والمزج، فخلَط بين الشَّيئين أي: دخل بينهما وعجز عن تمييز أحدهما من الآخر، حيث جمعهما وضَمَّهما

معًا، ومنه قوله سبحانه: {**وَآخَرُونَ اعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً** }.(١)

ولكن ما نوع الخلط الذي يريد أن يتحدث عنه الحجاج ؟ وما هي الوظيفة البلاغية لسرد تلك الكلمات؟ " **فَخَالَطَ اللَّحْمَ وَالدَّمَ وَالْعَصَبَ وَالْمَسَامِعَ وَالْأَطْرَافَ والأعضاءَ والشَّغَافَ،** "؟! حيث جاء به في صورة مستكرهة يمُجّها السمع وتنفر منها النفوس.

والحجاج من أشهر الخطباء الذين تميزوا بأسلوب خاص في خطابتهم، حيث يختار الألفاظ الغريبة المجلجلة التي تملأ الفم وتترك رنة قوية في أذن المستمع، وهذه الألفاظ هي: " **اللَّحْمَ وَالدَّمَ وَالْعَصَبَ وَالْمَسَامِعَ وَالْأَطْرَافَ والأعضاءَ والشَّغَافَ، ثُمَّ أَفْضَى إِلَى الأفْخَاخِ والأصْمَاخِ، ثُمَّ ارْتَفَعَ فَعَشَّشَ، ثُمَّ بَاضَ وَفَرَّخَ**"(٢):

وأما التراكيب التي تنتظم فيها هذه الألفاظ فهي تراكيب قوية متينة حسنة النظم، وحُسن نظمها نجده في قوله:" **فَخَالَطَ اللَّحْمَ وَالدَّمَ وَالْعَصَبَ.....**"، فهذه صورة تبين مدي سيطرة الشيطان وتحكمه في أهل العراق حتى أنه خالط بين اللحم والعظم والدم الذي هو: "السائلُ الحيوي الذي يسرى في الجهاز الدوري للإنسان" (١)، – مع إظهار لونه الأحمر–، كما خالط بين الحِسُّ والحركةُ من المخِّ إلى البدن من خلال العصب الذي يَشُدُّ المفاصِلَ ويربُطُ بعضَها ببعضَ وبين الأُذُنُ الَّتِي يَسْمَعُ بِهَا. والأطراف المتمثلة في اليَدينِ والرِّجْلينِ والرَّأْسُ.

ثم جاء بلفظ: " **الأعضاء** " أي حتى أنه وصل إلى الأعضاء التي لا يعيش الإنسان بفقد واحدٍ منها، وهي القلب، والدِّماغ، والكبِد، والرِّئتان، والكُلْيتان.

---

(١) سورة التوبة أية ١٠٢.

(٢) اللَّحْمُ من الجسم: هو الجزء العضلي الرَّخو بين الجلد والعظم. و"الدَّمُ": السائلُ الحيوي الذي يسرى في الجهاز الدوري للإنسان والحيوان. "العَصَب": شِبْهُ خيوطٍ بيضٍ يسري فيها الحِسُّ والحركةُ من المخِّ إلى = =البدن والجمع: أَعصاب ، "مَسَامِعُ": جمع مِسْمَع الأُذُنُ الَّتِي يَسْمَعُ بِهَا. الأعضاء في التشريح: الأعضاء التي لا يعيش الإنسان بفقد واحدٍ منها، وهي القلب، والدِّماغ، والكبِد، والرِّئتان، والكُلْيتان. الشَّغَافُ: غِلاف القلب، أَو سويداؤُه. أَفْضَى إِلَى مُرَادِهِ وَهَدَفِهِ: وَصَلَ، بَلغَ مِنَ الضَّرُورِيِّ أَنْ يُفْضِي إِلَيْهِ وَ لَوْ بَعْدَ مَشَقَّةٍ وَتَعَبٍ.أفخ فلانا: ضرب يأفوخه ؛ وهو ملتقى مقدَّم رأسه مع مؤخَّره. صمخ: الصِّماخُ بالكسر خرق الأذن وقيل هو الأذن. اللسان ٤١٦/٣، ٢٧٤/٦، ٦٨١/٤، ٣٠٨/٦، ١٤٠/٥، ١١٧/٧ ، ١٧٠/١ ، ٣٩٢/٥.

(١) الصحة النفسية والإرشاد النفسي د/ علاء الدين كفافي ص٥٠.

ومن ثم فالحجاج لم يغادر شيئًا من جسم الإنسان إلا وقد أتى به –لأنّ جسم الإنسان لا يخلو من هذه الأجزاء –، ليظهر مدى مخالطة الشيطان لأهل العراق، فأحسن استيفاء الأقسام، حيث إن الجملة مكتملة المعنى والسياق في صدرها ونصفا عجزها.

لكن الحجاج أراد استيفاء المعنى في خاطره وخاطر السامع، فقال، مضيفًا ومطنبًا:

"**الأعضاء**". وهذه الإضافة مفيدة على الصعيدين الفكري والبلاغي، إذ لخصت الكلام كله، والصورة كلها بهذه الكلمة الجامعة.

قال ابن الأثير عن هذا الضرب: (إنه أصعب الضروب الأربعة طريقًا وأضيقها بابًا لأنه يتفرع إلى أساليب كثيرة من المعاني..)[١]

واستيفاء التقسيم أسلوب بلاغي صعب المنال، يتطلب خبرة وإجادة عميقة للفكرة، وهو ليس متاحًا لكل أحد، إلا لأولئك الذين امتلكوا ناصية اللغة، وألموا بخباياها فعرفوا كيف يقودون أزمتها، لأن المتكلم يضع نفسه في زاوية الحصر والتضييق، ومن هنا تبدو روعة فنه، في القدرة على لملمة الأفكار وحصرها والإحاطة بها من جميع جهاتها.

دلالة الصورة البيانية.

قد يمتلك المرء العجب عندما يدرك أن خطبة دير الجماجم تجاري النثر الشعري الذي يعتمد على التصوير، والإيقاع، واختيار الألفاظ الموحية، والحجاج بهذا لا يتوسل إلى إمتاع المتلقي، والتأثير فيه بوسائل صناعية، بل بوسائل طبيعية فنية. حيث يمثل الخيال عنده مجالا رحبًا في إبداع الصورة التخييلية التي تهدف إلى إظهار فكرته، أو تصوره عن المواقف والتجارب التي يتناولها بالتوصيف والتشخيص، ومن ثم كانت هناك علاقة وطيدة بين الصور الأدبية والبنيان الموضعي الذي ترد فيه.

والخيال في ندائه لأهل العراق يسمى بالخيال البياني أو التفسيري، وهو:" بث الأديب الحياة والروح والحركة في الصورة الميتة الجامدة، وجعلها صورة مفعمة بالحس والحيوية، بعد أن كانت صورة جافة " [٢]

(١) المثل السائر ٢/٣٥٥

وقد تمثل هذا الخيال في قوله:" **إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدِ اسْتَبْطَنَكُمْ، فَخَالَطَ اللَّحْمَ وَالدَّمَ وَالْعَصَبَ وَالْمَسَامِعَ وَالْأَطْرَافَ والأعضاءَ والشَّغَافَ، ثُمَّ أَفْضَى إِلَى الأَفْخَاخِ والأَصْمَاخِ،**

ثُمَّ ارْتَفَعَ فَعَشَّشَ، ثُمَّ بَاضَ وَفَرَّخَ، فَحَشَاكُمْ نِفَاقًا وَشِقَاقًا، وَأَشْعَرَكُمْ خِلَافًا."

حيث يصور الحجاج مشهد عبد الرحمن بن الأشعث أثناء مؤامراته التي كان يديرها مع أهل العراق عليه، حتى أعلنوا خلع الحجاج من الولاية، ومبايعته، حيث كنى عنه بـ " **الشيطان**"، ولم يشأ الحجاج أن يجعل أهل العراق طرفًا مشاركًا لابن الاشعث بل نراه يصفهم بأنهم أصبحوا بطانة للشيطان ذاته، فأصبحوا بذلك أحد أفراده، حيث ألبسهم ثيابه عندما استبطنهم.

ويلاحظ في هذا النص، كيف أطلق الحجاج صورة المخالطة على مصراعيها بعد منحها الحياة، حيث جعل:" **الدم، واللحم، والعصب، والمسامع، والأطراف، والأعضاء، والشغاف، والأفخاخ، والأصماخ** " عناصر لتلك المخالطة، وجزء فاعلا في تشكيل النفاق والشقاق، فوصف أهل العراق كما وصف ابن الاشعث، وانتصر لرأيه فيهم بعد أن فشل كل منهم في تحقيق آماله بخلع الحجاج من ولايته،غير أنه ألزمهم حجته، وجمعهم على الإقرار بتلك الاستبطانة.

وقد بدا عنصر الخيال واضحًا في بيان كيفية مخالطة "**الشيطان**" لأهل العراق ومدى سيطرته عليهم فلم يترك الحجاج شيئًا مما يحتويه الإنسان في جسده إلا شخّصه وصوره وجعله صورة حية نابضة تتحرك، ولها دور هام في المخالطة لتنتج في نهاية تلك المخالطة شيطانًا يمشي على الأرض ويتحكم في أهل العراق، دون أدني مقاومة منهم.

ومن ثم كان الخيال من العناصر الأساسية التي استعان بها الحجاج في التعبير عن المعاني في الرسائل الوصفية التي أراد إرسالها لأهل العراق، وخاصة في وصفة لجميع أجزاء جسم الانسان، فقد أضفى على أعضاء الجسد المختلفة من خياله ما يجسمها ويشخصها، وخاصة في قوله: " **ثُمَّ أَفْضَى إِلَى الأَفْخَاخِ والأَصْمَاخِ، ثُمَّ ارْتَفَعَ فَعَشَّشَ، ثُمَّ بَاضَ وَفَرَّخَ،** " فبعث فيها الحياة والحركة وخلع عليه المشاعر الإنسانية، حيث اعتمد الحجاج في رسم صوره المتعددة هنا على

(٢) أصول النقد الأدبي ، أحمد الشايب ص ٢١٨، مكتبة النهضة المصرية ط/٩ ، ١٩٨٥م.

عنصري التشخيص والتجسيم، وذلك بإلباس المعاني صورًا حية، وخلع الصفات الإنسانية على المنعوتات، وبث الحياة والحركة والنشاط فيها بقوله:" **وفرّخ**".

ثم آثر لفظ " **الشُّغَافَ** " وشغاف القلب أي غِلافه أَو سويداؤُه [١]حتى يبين أنه أَفْضَى إِلَى مُرَادِهِ وَهَدَفِهِ، بَعْدَ مَشَقَّةٍ وَتَعَبٍ، ومن هنا ذكر لفظ " الأفخاخ" وهو مُلتقى مقدَّم رأسه ويسمي اليأفُوخ الأمامي،ومُلتقى عظام مؤخَّر الرأس ويسمى اليأفُوخ الخلفي[٢]، فكأنه ضرب يأفوخه؛ فكسر جمجمته، فخرق الأذن. ومن ثم ارتفعت كل هذه الأشياء بعد اختلاطها وعَشْعَشُت داخلهم.

ومن هنا جاء بتركيب عجيب ليشخص لنا مدى تحكم الشيطان في أهل العراق من خلال الصورة التمثيلية المركبة، حيث شبه هيئة تلك المخالطة التي تم سردها آنفًا بهيئة العُشُّ المتراكبُ بعضُه فوقَ بعض. والذي أَلْقَتْ فيه الدَّجَاجَةُ بَيْضَتَهَا، بعد أن أقامت في عشها ولزِمَته زمنًا، حين أَعْجَبَهُا الْمَكانُ فبَاضَت فيه.

لذا جاء بـ "**ثُمَّ**" العاطفة أي بعد أن باضت وفَرَّخَتِ الْبَيْضَةُ أي: اِنْفَلَقَتْ عَنِ الْفَرْخِ، بجامع هيئة المخالطة والمزاوجة والاندماج في كل، وخروج شيء ما في كل.

وجمال التشبيه التمثيلي هنا، في أنه احتاج إلى تأول على رأي الإمام عبد القاهر الجرجاني، أو على رأي الخطيب [٣]؛ لأن وجه الشبه مأخوذ من صورة تركيبية حيث إن معنى فَرَّخَ القَوْمُ: أي فَزِعُوا[٤]، وذَلُّوا فَصَارُوا كَالفِرَاخِ، بعد أن فَرَّخَ الأَمْرُ: وَضَحَتْ عَاقِبَتُهُ بَعْدَ اشْتِبَاهٍ.

فكأن الشَّيْطَانُ بَاضَ فِي رَأْسِهِم وَفَرَّخَ عليهم أي أَغْوَاهُم وَاسْتَقَرَّتْ غَوَايَتُهُ فيهم. وبتلك الصورة التشبيهية التمثيلية سعى الحجاج إلى توظيف التشبيه في خطبته، حيث إنه وجد فيه وسيلة ناجحة للتعبير والتصوير، إذ إنه يرسم صورة واضحة المعالم تساعد المتلقي على استيعاب الفكرة.

---

(١)) مختار الصحاح للرازي ص١٩٣ ، دار الحديث ط/١ ، ٢٠٠٠م

(٢) المعجم الوجيز ص٢٠.

(٣) انظر أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر الجرجاني تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجة ص١٥٥، مكتبة الإيمان ، والإيضاح للقزويني ص ٢٢٩.

(٤) المعجم الوسيط ص٤٦٥.

وتكمن بلاغة هذا اللون التصويري في أنه يظهر براعة الخطيب وحذقه في عقد مشابهة بين صورتين ما كان يخطر في البال تشابههما، فأضفت هذه الصورة النقلة بين الصورتين البعيدة والقريبة لمسة سحرية حركت بها عواطف سامعيها، ومن هنا تظهر البلاغة الصورة البيانية لكل من المتكلم والمخاطب في أدقِّ صورها.

والفَرْخُ من الرِّجال: الذَّليلُ، ومن ثم جعل الشيطان بهذا التفريخ حاشية له أذلاء ليتبعوه ويجعلوه قائدًا لهم ومؤامرًا يستشيرونه، والهدف من ذلك إطاعتهم له، حينما حشاهم نفاقًا وأشعرهم بأنهم خلفاء له.

وقوة التركيب ومتانته تظهر في خلوه من الحشو، فالتركيب ممتلئ بالألفاظ الجيدة المنظمة، فهي تركيبات لا نجد فيها كلمة نابية عن مكانها أو غير مؤتلفة مع الكلمات الأخرى.

ومن ثم عرّف صيغة المفرد بـ" **أل**" الجنس في قوله:" **اللحم، والدم، والعصب**" لأنه يشير إلى مطلق المفهوم، أي حقيقة مفهوم المسمى، حيث إن المفهوم إن أخذ من حيث هو باعتبار حضوره في الذهن وتعهده فيه من غير اعتبار تحققه ووجوده في الخارج فهو المعرف بلام الجنس، يقول التفتازاني في شروح التلخيص: "أن اللفظ إذا دل على الحقيقة باعتبار وجودها في الخارج فإما أن يكون لجميع الأفراد أو لبعضها إذ لا واسطة بينهما في الخارج، فإذا لم يكن للبعضية لعدم دليلها وجب أن يكون للجميع."(١)

كما آثر الحجاج هنا صيغة الجمع، والمعرَّف بـ" **أل**" الاستغراقية للجنس لأنه يشير هنا لكل أفراد الحقيقة في قوله: "**المسامع، والأطراف، والأعضاء، والشغاف... الأفخاخ، والأصماخ**" فهو يخاطب أهل العراق قاطبة ولا يخاطب فردًا منهم أو مجموعة دون أخرى، تأثرًا بالسياق، ثم يأتي بصيغة المفرد بعد وصفه لهم بقوله: "**ارتفع، باض، فرّخ**" وكأنه شبههم في هذه الحالة بالطائر الذي يرتفع فوق الأشجار لبناء عُشّه ثم يبيض فيرقد على بيضه حتى يفرَّخ، ومن ثم انتقل من صيغة الجمع إلى صيغة المفرد لتأدية الغرض المساق إليه القول.

ومن ثم تجوَّل الحجاج بين حروف العطف ضمن المقاصد الّتي يريد المتكلّم التعبير عنها والدّلالة عليها. فآثر كل منها في موضعه حيث جاء بـ" **الواو**"

(١) انظر شروح التلخيص ٣٢٠/١، ٣٢١، دار الكتب العلمية بيروت – لبنان ، بدون تاريخ.

العاطفة بين بعض الألفاظ " **الدَّمَ وَالْعَصَبَ وَالْمَسَامِعَ وَالْأَطْرَافَ والأعضاءَ والشَّغَافَ**" إذا أراد إشراكَها في حكمها، والمتكلّم يُريد أن يَدُلَّ على هذا الاشتراكِ لأمْرٍ ما، لأَنَّها تُفِيدُ الإشراك في الحكم في عطف المفردات، فـ "**الواو**" في العطف تقتضي مطلق الجمع والمشاركة دون تفصيل.

ثم ثنى بحرف "**ثم**" العاطفة ثلاث مرات في قوله: " **ثم أفضى، ثم ارتفع، ثم باض**" لأن "**ثم**" تفيد الترتيب والتراخي الزمني فدَّل هذا على أن مجيء هذا الإفضاء والارتفاع والبيض بعد خلط الشيطان للأشياء السابقة الذكر، ولكن هل مجيء هذه الصورة جاء بعد مجيء المخالطة مباشرة أو بعد زمن ؟ لا بل بعد زمن.

ثم ثلث بحرف "الفاء" في قوله: " **فَحَشَاكُمْ نِفَاقًا** " لأن "**الفاء**" تقتضي الترتيب مع التعقيب والسرعة مما يدل على سرعة استجابتهم للشيطان – ابن الأشعث –، وعدم ترددهم وتفكرهم، فدل هذا على أن مجيء حشو النفاق في نفوس أهل العراق بعد أن اتخذوا الشيطان دليلا لهم مباشرة دون فاصل، وهذا يدل على سرعة وقوع الحدث.

ثم جاء بحرف العطف "أو" **تعِظُكُمْ وقَعَةٌ؟ أو يَحْجِرُكُمْ..؟ أو يَنْفَعَكُمْ..؟** للدلالة على الإباحة أو التخيير، وكلاهما أفاده المعنى.

لذا نرى الحجاج هنا عندما أراد الاختصار والتفصيل جاء بحروف "**الفاء، وثم**"، وعندما أراد الاختصار دون تفصيل جاء بحرف العطف "**الواو**" وعندما أراد الاختصار مع الإباحة والتخيير جاء بحرف " **أو**"، في قوله:" **أوْ تعِظُكُمْ وقَعَةٌ؟ أو يحجِرُكم إسلامٌ، أَوْ يَنْفَعُكُمْ بَيَانٌ ؟**"

والحجاج عربي فصيح يخاطب عربًا فصحاء لذلك فإنه لا يراعي ظهور المعنى وانكشافه بسرعة، وإنما يورد بعض العبارات التي تحتاج إلى تأني في فهمها ؛ فهو يعتمد على المجاز كما في قوله: **(فَحَشَاكُمْ نِفَاقًا وَشِقَاقًا)** وقوله: **(وَأَشْعَرَكُمْ خِلَافًا)**. عن طريق الاستعارة المكنية.

حيث شبه وساوس الشيطان لأهل العراق بحَشو الفراش وغيره، والحَاشِيةُ واحدة حَوَاشِي الثوب وجوانبه، والحَشِيّةُ الفراش المحشو[1]، والحَشْوُ ما حشوت به فراشا

(١) مختار الصحاح ص ٨٦.

بجامع الامتلاء في كل، ثم حذف المشبه به وهو الفراش أو الثوب وترك له شيئًا من لوازمه وهو الحشو على سبيل الاستعارة التخييلية.

حيث تخيل الحجاج أن الشيطان تمكن من هؤلاء بالمخالطة التي تم صنعها بالنفاق والشقاق أي: جعل بينكم اختلاف وانقسام، وخصومة وعدم اتِّفاق، وعداوة، وألقى بينكم بذور الشِّقاق فسعى بينكم بالنَّميمة، فهُوَ مِنْ أَهْلِ الشِّقَاقِ أي: مِنْ أَهْلِ الخِلَافِ وَالنِّزَاعِ. وفيه مبالغة غلو مقبولة لأنها مقترنة بصورة خيالية.

ومن ثم شبه وساوس الشيطان بالنقاق والشقاق لأهل العراق بالثوب الذي يتم حشوه بالداخل وفيه من الراحة ما يروق للإنسان لها، وهذا ما يحدث في حب الفتن والشقاق التي يروق للمنافق فعلها، و" **الحَشَا** "ما اضمت عليه الضلوع والجمع أَحْشَاءٌ وحُشْوَةُ البطن بكسر الحاء وضمها أمعاؤه [٢].

فكأن الحجاج تخيل أن الشيطان تمكن من أمعاء أهل العراق وحشاهم نفاقًا لكي ينقلبوا على الحكَّام ويتآمروا عليهم، وليس ذلك فحسب بل هم يستشيرونه في تآمرهم، وقد ساهم الخيال في صنع أسلوب خلاب يبرز أحيانًا في صورة استعارة وأحيانًا في صورة تشبيه.

وفي قوله: "**وَأَشْعَرَكُمْ خِلَافًا**" [١]أي: جَعَلُوا الخلاف بينهم شعارًا وهدفًا لأغراضهم سواء كان هذا الخلاف حقًا أم باطلا، فألصقكم الشيطان بفعلكم هذا به، حتى "**اخذتموه دليلا تتبعونه**"، فشبه الخلاف كأنه شعار وعلامة لهم تميِّزهم عن غيرهم، ثم حذف المشبه على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية، ليضفي أثرًا في نفسية متلقيها. وبذلك أصبح الخلاف بين أهل العراق كأنه سمة وعلامة بارزة يتخذونها شعارًا لهم في حياتهم، وهذا يدل على عدم اتحادهم.

ومن خلال تتبعنا لألفاظ هذا النص وتراكيبه وخياله نجد أن الحجاج قد صنع أسلوبًا تتوافر فيه كل مقومات الأسلوب المتين القوي. حيث أعاد الضمير على المتقدم رتبة في قوله:" **اتَّخَذْتُمُوهُ دَلِيلًا** " فعرف المسند إليه بـ"**الضمير**" دون "**العلمية**" ؛ لأن المقام إما أن يكون مقام الغيبة، لكون المسند إليه مذكور أو في حكم المذكور لقرينة، قوله: " **الشَّيْطَانَ قَدِ اسْتَبْطَنَكُمْ** "، أو أن المقام في سياق الخطاب، وإذا خاطبت الشخص لابد أن يكون هذا الشخص مشاهدًا معينًا، ولكن

(٢) المعجم الوسيط ص١٥٣.

(١) جمع خَلَفُ مختار الصحاح ص ١١٠.

لم يروا الشيطان أي: لم يشاهدوه لكن استحضار الحجاج للفظ الشيطان في الخطبة صح بها الخطاب.

وآثر لفظ " **دَلِيلًا** " دون "**مرشدًا**" لأن الدَّلِيلُ: ما يُسْتَدَلُّ به[١] فهو بالنسبة لهم الدليل الذي يدلُّهم إلى معلومات خاصَّة بموضوع ما، وهو صفة مشبَّهة تدلّ على الثبوت من دلَّ أي: أهدى الطريق فهو ملازم لهم وفي صحبتهم وليس مرشدًا فقط.

و"**الدليل**" يأتي بناءً على طلب، لذلك يستدل به على الخير أو الشر–حسب الطلب– في الطريق المادي، ولذلك وجب اتباعه لجهل تابعيه، وهذا التفسير يناسب الموقف فكأنهم هم الذين سعوا إليه واتخذوه دليلاً، فلذلك أسلموا أنفسهم إليه.

أما المرشد فالأصل فيه الإرشاد والى الخير فقط، وآيات القرآن تؤيد ذلك كما في قوله تعالى: { **وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُّرْشِدًا** } [٢].

ومن ثم فالدليل أعم من المرشد، لذا ألحقه بقوله: " **تَتَّبِعُونَه** " أي تتَّبعون أوامره مِنَ البِدَايةِ إِلَى النِّهَايَةِ، ولفظ التتبع يدل على أنهم عاينوا ودققوا بِتَمَهُّلٍ وَرَوِيَّةٍ أوامر الشيطان فصَارُوا عَلَى نَهْجِهِ، واقْتَفَوا بخُطُواته وبالتالي خَضَعَوا لَه، وانقادوا إِلَيْه.

وقد أكدّ الحجاج قوله: "**دليلاً**" بـ" **قَائِدًا** " للتتميم الحسن، وهو فن بديعي، وصورة من صور الإطناب، أي أنكم لم تتبعوه فقط بل هو القائد الذي يَقُودُكم وَيَتَحَكَّمُ فِي سَيْرِكم وَحَرَكَاتِكم وَتَخْضَعُون لِأَوَامِرِه. أي جعلوا له الأمر والنهي ووجوب الاتباع.

ففي الجملة نكتة لطيفة تحمل معنى القيادة والتحكم، في مرحلة موافقتهم على تلك الاستبطانة عندما اتخذوه دليلا وقائدًا. وهذه النكتة كامنة في صدر الجملة التي بدأت بالإسمية التقريرية، وخبرها في نهاية الجملة، أي: "أن الشيطان استبطنكم فاتخذتموه دليلا وقائدًا"، رغم تحذيري لكم، أو بالعكس أي: قائدكم الشيطان يا أهل العراق.

---

(١) اللسان، مادة: " دلّ" ٣٩٩/٣.

(٢) سورة الكهف أية ١٧.

و"**قائد**" اسم فاعل من قاد، جيء به للمبالغة في التحكم لأنه دلالة على الفعل وصاحبه، هذا بالإضافة إلى الاستعارة التصريحية التبعية، حيث شبه الشيطان بقَائِدِ الْكَتِيبَةِ الْعَسْكَرِيَّةِ أو الزعيم أو الشخص الذي يقود مَنْ دونه، بجامع الطاعة والتحكم في كل، ثم حذف المشبه واستعار لفظ المشبه به " **قَائِدًا** "، وجمال الاستعارة في تشخيص صورة الشيطان، وبيان مدى تأثيره في أهل العراق، وأنه الآمر الناهي، الذي يتحكم حتى في أدق أمورهم.

وهذا فيه مراعاة نظير[١] مع قوله: " **وَمُؤَامِرًا تَسْتَشِيرُونَهُ** " حيث بني على المناسبة في (اللفظ) وذلك بأن يؤتى بلفظ يناسب معناه أحد الطرفين ولفظة الطرف الآخر فـ " **مؤامرًا** "، تتناسب مع " **دليلا** " ومؤامِر: فاعل من آمَر والآمر: من بيده أمر الناس يطلب منهم فعل كذا أو كذا، فهو سيِّد مطلق بِيَدِهِ الحَلُّ وَالعَقْدُ،، وله سُلْطة غير محدودة، فتزعّم واستبدّ، وأصدر الأوامرَ بتكبّر وسيطرة. كما أن بين " **تَتَّبِعُونَهُ، تُطِيعُونَهُ، تَسْتَشِيرُونَهُ**" مراعاة نظير أيضًا ؛ لأن فيه ائتلاف اللّفظ والمعنى[٢] في الذمّ، وهذا واضح في لفظه ومعناه.

والأسلوب هنا بعيد عن اللباقة وهو أسلوب واضح وملائم للحالة التي يعيشها العراق في ذلك الوقت، فالحجاج كان في منتهى الصراحة عندما قال: **(فَكَيْفَ تَنْفَعُكُمْ تَجْرِبَةٌ ؟ أَوْ تعِظُكُمْ وقَعَةٌ؟ أو يحجِركم إسلامٌ، أَوْ يَنْفَعُكُمْ بَيَانٌ ؟)**

وهنا انتقل الحجاج من الأسلوب الإنشائي الطلبي في بداية خطبته المعبر عنه بالنداء في قوله: " **يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ** " إلى نفس الأسلوب ولكن عبرَّ عنه بالاستفهام بقوله: "**كَيْفَ**"؟ وكأنه بعد أن نادى عليهم ووصف حالهم ومقارنتهم بالشيطان أراد أن يعيِّن حالهم، ويصف الكيفية التي هم عليها بالاستفهام الإنكاري التوبيخي، ليوبِّخ حالهم بعد أن صورها لهم.

وآثر " **كَيْفَ** " دون غيرها حيث طلب بها التعيين، أي تعيين حال المخاطب، وهو ما يقصد به طلب تصوره لصورة المخاطب في تلك الحالة.

---

(١) مراعاة النظير: وتسمّى بالتوافق والائتلاف والتناسب أيضاً وهو: الجمع بين أمرين أو أمور متناسبة، الايضاح ص ٣٠٥.

(٢) وهو أن يُختار للمعنى المقصود ألفاظ تؤديه بكمال الوضوح، علم المعاني د/عبد العزيز عتيق ص٥٠.

ويعتبر أسلوب الاستفهام واحدًا من الأساليب اللغوية الأساسية التي يكثر استعمالها في العديد من المواقف اليومية التي تواجه الإنسان، كما أنّ الاستفهام يعتبر أساسيًا في مختلف اللغات لكونه كثير الاستعمال في الحياة اليومية.

ومن ثم فقوله:" **فَكَيْفَ تَنْفَعُكُمْ تَجْرِبَةٌ** ؟" جاء الاستفهام مستَعْمَل في الإنْكار: ويُسَمَّى استفهامًا إنكاريًّا، ويُرادُ منه النفي، مع الإنكار على المثْبِتِ، فكأنه يقول: كَيْفَ أَثبتَ مَا هو ظاهر بالنفي؟، وكانَ الواجبُ عليه أن يَنْفِي قضيَّته، وهي باطلةٌ في تصوُّرِ مُوجِّه بالاستفهام.

والنفي بطريق الاستفهام أقوى دلالة من صريح النفي؛ لأنَّ فيه معنى أنَّ المخاطب سبق إلى النفي، فكان النفي من القائل، والإقرار به من المخاطب، ولا شك أن مجيء النفي بصورة الاستفهام هنا فيه مزيتان:

- إحداهما: تنبيه إلى أنه كان يجب عليهم قبل أن يعتقدوا أن يتعرَّفوا على الدليل الذي يسوغ لهم العلم حتى لا يقولوا على الحاكم ما لا يعلمون.
- الثانية: أنَّ في الاستفهام حملًا لهم على أن يقروا بالنفي، وفوق ذلك كلـــه فإنَّ سياق الكلام فيه توبيخ لهم؛ لأنهم بنوا عقائدهم على أمور باطلة لا أساس لها من حق ولا علم.

وجاء الاستفهام إنكاريًا؛ لإنكار وقوع موضع الإنكار، وهذا إنكار يقال له: إنكار الواقع، ويحمل معنى التوبيخ على ما وقع بأنَّه لا أصل له. فادّعاء أهل العراق بأنهم يمكنهم التمرد على وليهم وأميرهم وخروجهم على شرعيته، لذا نفي عليهم الحجاج اعتقادهم بذلك، حيث إنهم لا يمكنهم الخروج على أمر الحاكم. ومن ثم أفاد الاستفهام النفي الإنكاري التوبيخي من جهتين من جهة المخاطب ومن جهة المتكلم. وهذا يفهم من السياق وقرائن الأحوال.

وفي قوله:" **أوْ تعِظُكُمْ وقَعَةٌ؟ أو يحجزُكم إسلامٌ،** " استفهام في صورة استعارية حيث شبه الحجاج " الوقائع السابقة" – كالأهواز والزاوية – بإمام واعظ يقدم المواعظ والنصائح لأهل العراق، وحذف المشبه به " إمام واعظ" وأبقى على لازمة من لوازمه تتمثل في لفظة " **تعِظُكُمْ** " وهي من خصائص إمام واعظ، على سبيل الاستعارة التخييلية، حيث تخيل الحجاج أن الوقائع السابقة واعظًا يعظ أهل العراق ليأخذوا منها العبرة والموعظة، لأن الاتعاظ يكون قبل وقوع الحدث، فلو اتعظوا بما سبق لما حدث لهم ما حدث في موقعة دير الجماجم، بدليل تذكيره لهم بعد ذلك بقوله: " **ألستم أصحابي بالأهواز...؟!** ".

ثم يشخص الصورة مرة أخرى باستعارة مكنية أيضًا بقوله: " **أو يحجزُكم إسلامٌ** " ومن ثم جعل لها دلالة معنوية، حيث شبه الإسلام بحاجز مادي يمارس وظيفته الحجز والإيقاف على الناس، ثم حذف المشبه به " **الحاجز المادي**" ورمز له بشيء من لوازمه، وهو لفظ " **الحجز**" على سبيل الاستعارة التخييلية، حيث تخيل الحجاج أن الإسلام كالحاجز المادي لكل من تسول له نفسه فعل المنكرات.

ومن هنا اتخذ الحجاج الاستعارة غاية له وخاصة الاستعارة المكنية، باعتبار أن بلاغتها تكمن في تركيبتها اللغوية الجديدة، والتي تكسر الحواجز الموجودة بين الأشياء في العالم الواقي لتخلق عالمًا جديدًا خياليًا، فتعمل في تحريك العاطفة والخيال لفهم المعنى المراد من خلال أركان التشبيه، فاستعان بها وحاول الاستفادة من مميزاتها في تشكيل صوره، والتعبير عن أفكاره، فتوسل بالتشخيص، وجعل المعنى المجرد كائنًا محسوسًا له ملامحه وأبعاده، وله قدراته في بعض الأحيان على الحس والحركة.

وما زال الحجاج يتجول في الأسلوب الإنشائي الطلبي ويستمر في حديثه بأسلوب الاستفهام، ولكن عندما أراد أن يُسْتَفْهَمُ عن التصوُّر والتصديق، في أداة واحدة جاء بـ "همزة الاستفهام" في قوله: " **أَلَسْتُمْ أَصْحَابِي بِالْأَهْوَازِ** [(١)] ؟

فَمِنَ الظَّاهر أنّ الاستفهام هنا مُسْتَعْمَلٌ لاستِدعاء المخاطب إلى الإقْرار بقضيَّةٍ مُوجَبَةٍ أو سالبة جرى حولها الاستفهام، والجواب المستدعى هو: "نعم" أي: من تفكَّر بعقلٍ حصيفٍ في هذهِ الحوادث التي ذكرها الحجاج وَجَدها مؤكِّدة حقًّا لمضمون قوله، وذلك لأنَّ الخلط الّذي ذكره سابقًا هي أزمان مرت على أهل العراق في تمردهم على حكامهم في الأُمَمِ السَّابقة، وظاهرٌ أنَّ استبطان الشيطان لهم كان عبر أزمَانٍ خاصة ملتبسة بالأَحْدَاثِ العظيمة التي جرتْ في دير الجماجم.

---

(١) الأهواز: مناطِقُ تَجْتَمِعُ فِيهَا المسَاكِنُ وَالقُرَى بَيْنَ البَصْرَةِ فِي العِراقِ وَبِلادِ فَارِسَ ، اللسان: مادة "هوز" ١٦٠/٩. تقع الأهواز جنوبي غربي إيران على ضفاف نهر الكارون، ويسكنها العرب منذ القدم، تم فتح الأهواز بقيادة أبي موسى الأشعري، وظلت المنطقة تحت الحكم الإسلامي كأحد أقاليم ولاية البصرة لستة قرون حتى سقوط بغداد على يد المغول وانتهاء الخلافة العباسية عام ٦٥٦ للهجرة (١٢٥٨ للميلاد). انظر معجم البلدان شهاب الدين البغدادي٣٠٠/١ ، دار صادر بيروت ط/١٩٧٧م.

وهذه الأحداث فيها أدلّةٌ تجريبيّةٌ ماضية تؤكد صدق الخبر لوجود المقتضيات المماثلات للمقتضيات التي حدثت بسببها الأحداث الماضية– دير الجماجم – ؛ لأنّ سنة الله القائمة على حكمته سنة دائمة، لا تتغيّر ولا تتبدّل. ومن ثم يذكرهم بأنهم أصحاب الأهواز: أي القائمين على المناطِقُ التي تَجْتَمِعُ فِيهَا المسَاكِنُ وَالقُرَى بَيْنَ البَصْرَةِ فِي العِراقِ وَبِلادِ فَارِسَ. لإقرارهم بذلك.

ومن هنا جاء بقوله: " **أَصْحَابِي بِالْأَهْوَازِ**" والصاحب هو المرافق، وإضافة "**ياء**" المتكلم إلى أصحاب أفاد التعريف الذي تضمن معنى الملكية، أي أنتم أصحابي في تلك البلدة.

ولكنه لم يقصد الأصحاب الذين تجمع بينهم الألفة والمودة، حيث يذكرهم بتمردهم عليه، وعلى الخلافة عندما خرجوا متبعين لبعض، فأرغمهم وقضى على تمردهم بمنطقة الأهواز، فخروجهم مع ابن الأشعث ليس أول تجربة لهم معه، ولكنهم لا يتعظون بما سبق، ومن ثم فهو يذكرهم بالماضي؛ لذا خرج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر وأراد به التوبيخ على عدم الاتعاظ بما مضى، لأنه علقَّ بعد ذلك بقوله: "**حيث رمتم بالمكر** ".

ومن ثم بيَّن المتكلم في خطبته سياسته الشديدة، ليظهر للمخاطب شخصيته، ولإلقاء الرعب في قلبه، ثم يظهر له خصاله أمام عينيه، فقال: " **حَيْثُ رُمْتُمُ الْمَكْرَ، وسَعَيْتُمُ بالغَدْرِ، واستجمعتُم للكفرِ** "، فقد قصد الحجاج من وراء هذه التعبيرات أن يصف أهل العراق بأنهم أهل خبث وغدر وخديعة، لذا جاء بالأسلوب الكنائي بصور مختلفة فقال: " **حَيْثُ رُمْتُمُ الْمَكْرَ** " وهو كناية عن صفة الخبث، وقوله: " **وسعيتم بالغَدْرِ** " كناية عن صفة الغدر. وقوله:" **واستجمعتُم للكفرِ** " كناية عن كثرة الجحود والنكران للنعم، بالخروج على الوالي.

وآثر الفعل الماضي في قوله: " **رُمْتُمُ، وسَعَيْتُمُ، واستجمعتُم** " للدلالة على وقوع الحدث في تجمعهم للكفر بالنعم حيث رَغِبُوا واشتهوا، وسعوا إلى الحصول على غير حقوقهم بالغدر والخيانة، فتجمّعوا من كل صوب وحدب بانضمام بعضُهم إلى بعض، بجمعهم وحشدهم لتحقيق مطلب معيّن لمواصلة السير للوثوبِ على الوليّ، ففيه تركيز على موضوع معيَّن بالتَّجرّد عن كُلّ ما عداه في الزمن الماضي.

ومن ثم استعان الحجاج بالكناية هنا في مقاطع نصية كثيرة، ليضفي بها لمسة جمالية في التشكيل النصي في جانبه التصويري، على اعتبار أن سر جمالها يكمن في أنها تقدم الحقيقة مصحوبة بقرينتها الدالة عليها.

لذا حذف المسند إليه "**أهل العراق**" لدلالة القرائن والسياق عليه، ولرغبة المتكلم في الاختصار والإيجاز؛ ويجوز أن يكون تحقيرًا لشأنهم.

ثم جاء بقوله:" **وَظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ يَخْذُلُ دِينَهُ وَخِلَافَتَهُ؟!**" فآثر لفظ "**ظَنَنْتُمْ** " والظَّنُّ: إدراك الذهن للشيءَ مع ترجيحه، وقد يكون مع اليقين(١)، وفي قولك: وظنُّ العاقل خير من يقين الجاهل: دعوة للابتعاد عن رأي الجاهل، وهو لفظ يدلّ على الشكّ أو الرُّجحان. وجاء الظن هنا بِمَعْنَى اليَقينِ أي علِمَه واستيقَنه: كقوله تعالى: **{ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُو اللّهِ}**.(٢) وقوله سبحانه:**{ وَظَنُّواْ أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ}**(٣)، بدليل قول الحجاج سابقًا: " **واستجمعتُم للكفرِ** ".

وهذا أسلوب الحكيم(٤) في أن تحمل كلام المخاطب على غير ما يقصد، وقالوا فيه(٥): إنه إتيان المخاطب بغير ما يترقبه كما في قوله: " **أَلَسْتُمْ أَصْحَابِي بِالْأَهْوَازِ؟!**"، فمراد السائل هو السؤال عن حقيقة تلك الصحبة، وفي السؤال فضول حيث إنه ليس من طبيعة الحجاج أن يكون بينه وبين أهل العراق صحبة مع بيان مثل هذه الأمور، وإن كانوا عالمين بها، ولذلك كان الجواب على ظاهر السؤال مخالفًا لمراد السائل وهو:" **وَظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ يَخْذُلُ دِينَهُ وَخِلَافَتَهُ ؟!**"، لذلك يَغْلِبُ عَلَىَّ الظَّنِ أَنَّ الأُمورَ تَسيرُ مِنْ سَيِّءٍ إلى أَسْوَأَ بالنسبة إلى اعتقادكم. لأنه اِعْتِقادُ وَتَصَوُّرُ أَنَّ كُلَّ ما يَصْدُرُ عَنكم فيهِ سوءٌ. وأسلوب الحكيم من أدق وألطف أنواع

---

(١) اللسان مادة " ظنّ" ٦/٣٠.

(٢) سورة البقرة آية ٢٤٩.

(٣) سورة التوبة آية ١١٨.

(٤) بمعنى إجابة السائل بما فيه منفعته ولم يسأل عنه، فكأن المجيب يقول له: ينبغي أن تسأل عن كذا فيكون الجواب عن كذا. وهذا الاسلوب شائع في القرآن الكريم بإجابة السائل عن سؤاله باختصار ثم الانتقال إلى الأهم كـ" يسألونك عن...؟ قل... وكقول الرجل الذي أتى النبي – ﷺ–فقال له يا رسول الله متى الساعة قائمة ؟ فقال ويلك وما أعددت لها ؟، فجواب النبي –ﷺ– بما فيه المصلحة أما موعدها فليس مهمًا. انظر فتح الباري في صحيح البخاري ، لابن حجر العسقلاني كتاب أحاديث الأنبياء دار الريان ١٩٨٦م.

(٥) فن البلاغة د/ عبد القادر حسين، ص٥٠.: دار الكتب – بيروت الطبعة الثانية – ١٩٨٤م.

البديع ؛ لأنه من الرادعات لأهل الفضول في الحديث، وقد أبدع الحجاج هنا في أسلوب المراوغة.

لذا قال الحجاج:" **وَأَنَا أَرْمِيكُمْ بِطَرْفِي وَأَنْتُمْ تَتَسَلَّلُونَ لِوَاذًا** " معطوفة على جملة " **وَظَنَنْتُمْ** " لاتفاق الجملتين في الخبرية لفظًا ومعنى، وذلك للتوسط بين الكمالين.

ومن ثم ذكر المسند إليه وعرفه بضمير المتكلم" **أنا**" لإظهار صورته واستحضارها في الذهن، وفيه أيضًا رغبة منه في إرادة التلذّذ والتعظيم لنفسه، أو إرادة التنفير، واستثارة الخوف، أو استثارة التقزّز من ذكر اسمه، وهذا يظهر حينما يكون المتحدَّث عنه مُخِيفًا أو مكروه الاسم ينْفِرُ منْه المتلقّي، كاسم "الحجَاج" عند خصومه، فسَمَاعُ اسم الحجاج يثيرهم ويغضبهم ويهيّج ثورتهم. وكل هذه التأويلات تم مراعاة حال كل من المتكلم والمخاطب، وهذا حسن.

ومن هنا آثر مجيء الفعل المضارع المعبر عنه بكلمة " **أَرْمِيكُمْ** " والتي تفيد معنى "**الإلْقاء**" الذي ينتج عنه صوت الشيء الذي يُرْمى، لإفادة صوت وصورة الفعل وتردده بين الحركة والسكون، ثم عبَّر عنه بالفعل المضارع الذي يفيد تجدد حدوث الحدث، ثم ذكر الفعل والفاعل والمفعول – المسند والمسند إليه – ومتعلقات الفعل لإفادة وضوح المعنى وتجليه لدى المخاطب.

ولتشخيص الصورة وظهورها جاء بـ "**كاف**" الخطاب الدالة على المواجهة، وإرادة استخدام لفظ "**الرمي**" للكناية به عن معناه اللغويّ وهو الإلقاء. كون الإضافة أخصر طريق وأوجزه، والمقام يقتضي الاختصار والإيجاز.

واستكمالا لمشهد إثارة الخوف والرعب لدى المتلقي – أهل العراق–، جاء بقوله: "**أرميكم بطرفي**"، و" الطَّرَفُ": تحريكُ الجَفْن، وفي قِصَّةِ سليمان من التنزيل العزيز: **{قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ }**(١) وقيل الطَّرْفُ(٢): العَيْنُ أو النَّظَرُ.

وهنا جاءت الاستعارة المكنية في قوله: "**أَرْمِيكُمْ** " وقوله: "**بِطَرْفِي**" لتشخيص الصورة التي يريد الحجاج إظهارها للمخاطبين ليصور من خلالها مدى شدته وقوته وصولجانه الذي لا يقهر.

---

(١) سورة النمل أية ٤٠.

(٢) اللسان مادة "طرف" ٥٨٦/٥.

حيث شبه إلقاءه للسوط والرمح على أعدائه بإلقاء نظرة من عينيه عليهم بجامع التأثير والتأثر في كل، ثم حذف المشبه به وترك له لازمة من لوازمه وهى الطرف على سبيل الاستعارة التخييلية، حيث تخيل الحجاج أن بإلقاء النظر من العين على رعيته تؤثر فيهم تأثيرًا أشدُّ من حمل السلاح عليهم.

نلاحظ أن الحجاج بدأ قوله: " **وَأَنَا** " بضمير المتكلم المنفصل ثم أضاف ضمير المتكلم المتصل "**الياء**" في قوله: " **بِطَرْفِي** " لكي يشير إلى تعظيم المضاف أو تعظيم المضاف إليه، فهو يُعظِّم نفسه بقوته، وبما يملك.

ثم ينتقل إلى ضمير المخاطب في قوله:" **وَأَنْتُمْ تَتَسَلَّلُونَ لِوَاذًا** " بعد أن يعطف تلك الجملة على سابقتها لإشراكها في الحكم، لبيان استمرار مشهد الحركة والسكون بإظهار وصف حالهم وهم يهرعون خوفًا من انتصاره في موقعة دير الجماجم.

لذا قال: " **تَتَسَلَّلُونَ** " أي: تَتسَلَّلون مِنْ بيوتِكم إِلَى الخَارِجِ فِي هُدُوءٍ واسْتِخْفَاءٍ، وتذهبون إلى ابن الأشعث لتتآمروا على الحجاج، فسعيتم بالغدر والمكر، فشخَّص الصورة عن طريق الاستعارة التصريحية التبعية، حيث شبه خروجهم من ديارهم خفية كاللصّ الذي تسلل إلى البيت بجامع الخفاء في كل.

لذا آثر لفظ "**التَسَلَّلَ**" لأنه يكون في الظّلام، أَو في الزِّحام، حتى لا يراهم أحد، ليبين الزمن والوقت الذي هم فيه، حينما يخرجون من ديارهم من غير استئذان خفية مستترين بشيء ما. وهذا فيه تضمين من قوله تعالى: **{ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا }** [(١)].

لذا قال:" **لِوَاذًا** " احتراس في القول حتى لا يظن المخاطب أنهم يخرجون كاشفي الوجه بل يستر بعضهم بعضًا أثناء خروجهم، حتى لا يتم التعرف عليهم، و قيل[(٢)]: لواذًا: تباعدًا و فرارًا. أي: يستترون فيلتجئون بغيرهم فيمضون واحدا بعد واحد، خفية بغير إذن الحجاج فيلوذ بعضهم ببعض.

ولهذه العبارة وقع في النفس إذ ترسم لوحة فنية ريشتها الكلمات، ووقعها وصف الصورة بكل معالمها من حركة وسكون، وإضاءة وظلام، وأحاسيس

(١) سورة النور أية ٦٣.

(٢) المعجم الوجيز ص: ٥٦٧. واللوذ بالشيء الاستتار والاحتضان به.

ومشاعر، ونظر وتأمل، في كليمات قليلة أدت الغرض وأوفته، وهذا ما يسمى بإيجاز القصر.

وذكر المسند إليه الإسمي تحقيرًا من شأنهم، ومن ثم قدمه على المسند الفعلي في قوله:" **وأنتم تتسللون**" لإفادة قصر الموصوف على الصفة، طريقه التقديم، قصرًا إضافيًا أريد منه " القلب". وقد خاطب به من يظن عكس الحكم الذي أثبته المتكلم وكأنه يقول: "**أنتم لا تتسللون إلا لواذا**" كأنهم ظنوا اتصافهم بالتسلل دون اللواذ.

وسمى قصر قلب لأنه يقلب –يعكس– حكم المخاطب الذي كان معتقدًا إياه ويثبت له غيره. واشترط بعض البلاغيين[١] في قصر الموصوف على الصفة قصر قلب تحقق تنافي الوصفين ؛ ليكون إثبات إحدى الصفتين مشعرًا بانتقاء الأخرى ؛ لأنهم لا يظنون أنهم يهلكون أنفسهم بذلك التسلل وإنما يظنون أنهم يقضون على الحجاج بصرف الناس عنه.

فقد نفى عنهم الهداية المنبثقة عن نور الحقيقة، وأثبت لهم أنهم ينطلقون وراء الخيال والجهل، فالصفة المثبتة منافية للصفة المنفية؛ لأنه لا يتصور اجتماعهما في آن واحد.

ومن هنا أراد الحجاج أن يكمل تلك اللوحة الكلامية ليبين مدى صلة المتكلم بالمخاطب، ومدى تواصله معه في المشهد المأسوي الذي يسرده الحجاج من خلال السياق، لبيان موقف أهل العراق أثناء تلك الموقعة الحازمة بقوله:" **وَتَنْهَزِمُونَ سِرَاعًا**".

فآثر لفظ "**تَنْهَزِمُونَ** " لبيان كسر شوكتِهم وانتصاره، وقهره، وغلبته عليهم، فاللفظ فيه مرارة وحزن وتأثر، تلك كلمات تظهر لنا المشهد المأسوي الذي وصلوا إليه، ففيها تشخيص للمشهد أمام أعين المتلقي.

ثم يأتي بصيغة المبالغة بقوله:"**سِرَاعًا**" جمع سريع، وتدل على شمول حالة الاضطراب لهم، كأنه تركهم يخوضون في باطلهم، ويلعبون في دنياهم حتى يلاقوا يوم الانتصار الذي توعدهم به، يوم يخرجون من ديارهم مهزومين مسرعين، كما كانوا على مر العصور الماضية، يهرولون ويسرعون، ذليلة أبصارهم منكسرة

(١) انظر أثر النحاة في البحث البلاغي ط/ عبد القادر حسين ص٤٠، دار غريب للطباعة ١٩٩٩م.

إلى الأرض، تغشاهم الحقارة والمهانة، ذلك هو اليوم الذي وعدوا به من قبل معركة دير الجماجم، ولكنهم كانوا به يهزأون ويُكَذِّبون خفية في صدورهم.

ويستمر الحجاج في سرده لأحداث الماضي بذكر معركة " يوم الزاوية[١] " و" دير الجماجم " حيث يقول: **(ثُمَّ يَوْمُ الزَّاوِيَةِ، وَمَا يَوْمُ الزَّاوِيَةِ؟! بِهَا كَانَ فَشَلِكُمْ وَتَنَازُعِكُمْ وَتَخَاذُلِكُمْ، وَبَرَاءَةِ اللَّهِ مِنْكُمْ، ونُكوصِ وليِّكم عنكم، إِذْ وَلَّيْتُمْ كَالْإِبِلِ الشَّارِدَةِ إلى أَوْطَانِهَا، النَّوَازِعِ إلى أعطانها، لَا يَسْأَلُ الْمَرْءُ عَنْ أَخِيهِ، وَلَا يَلْوِي الشَّيْخُ عَلَى بَنِيهِ، حتى عَضَّكُمُ السِّلَاحُ، وَقَصَمكُم الرِّمَاحُ. ثُمَّ يَوْمُ دَيْرِ الْجَمَاجِمِ، وَمَا يَوْمُ دَيْرِ الْجَمَاجِمِ ؟، بِهَا كَانَتِ الْمَعَارِكُ وَالْمَلَاحِمُ، بِضَرْبٍ يُزِيلُ الْهَامَ عَنْ مَقِيلِهِ، وَيُذْهِلُ الْخَلِيلَ عَنْ خَلِيلِهِ.)** [٢]

ومن ثم بدأ بالجملة الخبرية الإسمية التي تدل بمعونة المقام على دوام الثبوت، بقوله: " **يَوْمُ الزَّاوِيَةِ** " وذكر المسند إليه للتهويل من شأنه، ثم انتقل إلى الأسلوب الإنشائي الطلبي عن طريق الاستفهام الذي خرج من معناه الحقيقي وأريد به الإثارة، ولفت الانتباه، لأهمية ما هو آت على نحو قوله تعالى: { **الْحَاقَّةُ، مَا الْحَاقَّةُ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ** } [٣].

ثم أطنب عن طريق التكرار في قوله:" **وَمَا يَوْمُ الزَّاوِيَةِ ؟!** " والتقدير: **وما أدراك أو ما أعلمك بيوم الزاوية؟** زيادة في تهويله لتلك الموقعة، و" **ما** " مبتدأ و" يوم الزاوية" خبر المبتدأ، وهي جملة تامة مبهمة للإثارة والتشويق؛ لأنه أراد أن يحكى هول ذلك اليوم بسرد أحداثه الذي من أجله سيق الخطاب. ليحدث الحوار الوجداني بين المتكلم والمخاطب، ورسم المشهد الحسي المتجسد بالكلمات الدالة على الحدث.

---

(١) يوم الزاوية: أحداثها في محرم الحرام سنة ٨٢ اصطدم فيها الجيشان – جيش ابن الأشعث وجيش الحجاج – في الزاوية (بالقرب من البصرة) وتمكن الحجاج من هزيمة جيش عبد الرحمن، واستعاد البصرة وعفى عن أهلها. انظر فتوح البلدان أحمد بن يحيى البلاذري ١٢/ ٤٢٥، ٤٧٢، ٤٨٠، بتصرف، دار بيروت ١٩٨٨م ، وانظر أنساب الأشراف لأحمد بن يحيى البلاذري، تحقيق: محمود فردوس العظم ٦/ ٣٠٠، دمشق ٢٠٠٠م ،البداية والنهاية ابن كثير ٣١٦/١٢.

(٢) البيان والتبيين ٢/ ٣٠١.

(٣) سورة الحاقة الآيات ١: ٣.

لذا أراد أن يوضح أن تلك الجملة الإسمية التي أفادت الثبوت هي حدث وقع بالفعل، وآثر استخدامها لدلالتها أولاً: على أهمية الاسم واعتناء المتكلم أو المخاطب به، ودلالتها ثانيًا: على التأكيد لتكرار المسند إليه.

ثم انتقل إلى تفصيل أحداث تلك الواقعة بقوله: " **بِهَا كَانَ فَشَلِكُمْ وَتَنَازُعِكُمْ وَتَخَاذُلِكُمْ، وَبَرَاءَةِ اللَّهِ مِنْكُمْ، ونُكوصِ وليِّكم عنكم**"، فقدَّم المفعول به "الجار والمجرور" " **بها**" وصدره على المسند الفعلي " **فشلكم، وتنازعكم، وتخاذلكم** ".

وآثر حرف الجر " **الباء**" دون حرف " **في**" لأنهم في تلك الواقعة تم الفشل والتنازع والتخاذل بسبب أعمالهم. و" **الهاء**" ضمير عائد على يوم الزاوية، وكأنه أراد أن يظهر كينونة تلك الواقعة بزمانها فجاء بالفعل " **كان** " التامة الدال على مضي الحدث والزمن(١).

ولكي يعدد أحداث تلك الواقعة آثر ذكر الخاص بعد العام، أو التفصيل بعد الإجمال؛ لتعدد صورة المشهد الذي كانوا عليه في ذلك اليوم حيث تم " **فَشَلِكُمْ**" لوجود الضعف والتراخي.

لذا آثر لفظ "**الفشل**" لأن فيه ضعف للقلب وخَوَر الجَنان، فهو ضعف مع جبن لقوله تعالى: ﴿ **حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ**﴾ (٢) أي: جبنتم عن القتال، ومن ثم ذكر المصدر في قوله: " **فَشَلِكُمْ** " **وَتَنَازُعِكُمْ، وَتَخَاذُلِكُمْ** " عن طريق المجاز العقلي علاقته المصدرية.

وفي قوله: " **تَنَازُعِكُمْ** " بمعنى تَخَاصَمْتم حيث اختلفتم ولم تتفقوا على شيء، دَّل هذا اللفظ على وجود خصومة بين أفراد أو جماعات قد تقتصر على تبادل الشتائم، وقد تمتدّ إلى التماسك بالأيدي، أو استخدام أداة ما في المشاجرة، أو تُفضي إلى الحرب بينهم، أو نزاع الخصوم أمام الولي لوضع حدٍّ للنزاعات، وهذا فيه تصوير حسي للمشهد من خلال اختيار اللفظ الدال عليه، لإيحائه بصورة الحركة الدائبة بين الأطراف المتنازعة.

---

(١) الأفعال الناقصة إذا دلت على حدث زمن كانت أفعالا تامة ترفع فاعلا مثل بقية الأفعال التامة.
انظر: النحو الكافي ٢٦٥/١.

(٢) سورة آل عمران أية ١٥٢.

ثم أكد أحداث ذلك النزاع والفشل بأنهما كانا سببًا في النتيجة التي وصلوا إليها وهي "التخاذل"، لذا جاء لفظ "**تَخَاذُلِكُمْ** " مؤخرًا عن الفشل والتنازع، وهذا فيه حسن ترتيب لكي يحسن النظم المساق من أجله الحدث.

وهذا ما أوضحه عبد القاهر الجرجاني في نظرية النظم في كتابه دلائل الإعجاز حينما عرَّف النظم بأنه: (تعليق الكلم بعضها ببعض، وجعل بعضها بسبب من بعض) [١].

وعندما أراد الحجاج أن يذكِّرهم بحدود الله فيمن يخالف وليَّه، قال:" **وَبَرَاءَةِ اللَّهِ مِنْكُمْ** " فعطف تلك الجملة على قوله:" **يَوْمُ الزَّاوِيَةِ** " لإشراكها في الحكم.

وآثر لفظ "**بَرَاءَة** " لما فيها من التباعَدِ والتخلِّي عنهم لأنهم رُفقاء السّوء، ثم جاء بالإسناد المجازي العقلي وعلاقته السببية، وذكر لفظ الجَلاَلَةِ " **الله**" مقترنًا بتلك البراءة وهو الإلَهُ الْمَعْبُودُ بحَقٍّ للتعظيم، حيث إنه عَلَمٌ على الذَّات العليَّة الواجبة الوجود، الجامعة لصفات الألوهيّة، ويذكر اِسْمُ الجَلاَلَةِ عادة مقرونًا بألفاظ تدلّ على الإجلال؛ لذا سبق بقوله: "براءة"، مصداقًا لقوله تعالى: **{بَرَاءةٌ مِّنَ اللّهِ}**[١] ففيها تضمين. وهذا يدل على مخالفتهم لأوامر رب العباد لعدم إطاعتهم لأوليائهم.

لذا قال: " **ونُكوصِ وليِّكم عنكم** " و" **النُّكُوصُ** " الإحجام عن الشيء يقال: نَكَصَ على عقبيه أي رجع [٢] وكَفَّ وَامْتَنَعَ عَنْهُ، ونكوصهم كان سببًا في رجوع وليهم عن مساندتهم إذ هم ظَّالمون. ومنه قوله تعالى:{ **قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ }**. [٣]

ومن ثم آثر لفظ "**وليَّكم**" لأن الوَلِيّ هو: كل مَن وَلِي أَمرًا أَو قام به، ثم عرف المسند إليه بضمير المخاطب لأن يكون الكلام في سياق الخطاب، حيث كان الخطاب لمشاهد معين وهو الولي ؛ لأنه ناصرهم ومجازيهم بالحسنى.

لذا عند ذكر لفظ الجلالة جاء بالجار والمجرور" **منكم**" لأن "**من**" معناها العام: ابتداء الغاية، فغاية المخالفة البراءة، وقد أفادت التعليل والتقدير: " **من**

(١) دلائل الإعجاز ص ٢٥.

(١) سورة التوبة أية ١.

(٢) المعجم الوجيز نكص: رجع إلى الخلف، ص: ٦٣٤.

(٣) سورة المؤمنون أية ٦٦.

أعمالكم برئت منكم". وعند ذكر لفظ " **وليكم** " قال: "**عنكم**" لأنها هنا أفادت معنى الاستعلاء، أي هو ولي عليكم.

ومن ثم يأتي بصورة تشبيهية وأخرى استعارية لتشخيص المشهد العام وتوضيحه أمام المتلقي فيقول: " **إِذْ وَلَّيْتُمْ كَالْإِبِلِ الشَّارِدَةِ إلى أَوْطَانِهَا، النَّوَازِعِ إلى أعطانها، لَا يَسْأَلُ الْمَرْءُ عَنْ أَخِيهِ، وَلَا يَلْوِي الشَّيْخُ عَلَى بَنِيهِ، حتى عَضَّكُمُ السِّلَاحُ، وَقَصَمكُم الرِّمَاحُ.** "

و" **إذ**" ظرفية تدخل على الزمن الماضي، لذا جاء بـ " **إِذْ**" **في قوله:**" **إِذْ وَلَّيْتُمْ كَالْإِبِلِ الشَّارِدَةِ إلى أَوْطَانِهَا، النَّوَازِعِ إلى أعطانها** " لتحديد الزمن الذي تمَّ فيه الحدث من خلال صورة التشبيه المفصل لبيان أهمية الصورة التشبيهية وقدرتها على إيصال المعنى للمتلقي ؛ لأنها وسيلة من وسائل التعبير الوجداني بين المتكلم والمخاطب من خلال السياق، حيث أورد هذا التشبيه في معرض ذم أهل العراق، حيث شبه فرار أهل العراق من معركة دير الجماجم، ويوم الزاوية خوفًا من الموت، بفرار الإبل الشوارد إلى أوطانها، بجامع الفرار والهروب والخوف من الموت في كل.

ويبرز جمال هذا التشبيه في أنه مستمد من واقع البيئة العربية الصحراوية، وهذا ما ينمُّ عن براعة الحجاج في توظيف الصور من واقعه الذي يعيشه.

وفي لفظ " **الشَّارِدَة** " احتراس عن الإبل التي تكون مع راعيها، حتى لا يظن القارئ أنها إبل آمنة ومطمئنة. والإبل الشاردة التي تنَفَرَ وَتسْتَعْصَى وَتذَهَب فِي الأَرْضِ بعيدة عن موطنها، فتلك الإبل مثل من خرج عن طاعة ولي أمره وفارق الجماعة.

وفي قوله:" **إلى أوطانها**" الوَطَنُ هو مكانُ إقامةِ الإبل وَمقَرُّها، وإليه انتماؤها، سواء وُلدت به أَو لم يولد[1]، فكان سياق الكلام أن يقول: " **كالإبل الشوارد عن أوطانها**" ولكنه استبدل حرف الجر "**إلى**" الذي يفيد معنى انتهاء الغاية الزمنية أو المكانية حسب مراد المتكلم، بدلا من حرف الجر "**عن**" الذي يفيد المجاوزة والبعد على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية في متعلق الحرف. بجامع التعلق في كل.

(١) اللسان مادة:" وطن" ٩/ ٣٤٢.

ولاستكمال الصورة التشبيهية قال:" **النَّوَازِعِ إلى أعطانها**" و"**النازع**" هو: الغريبُ[٢]. و" **أعطانها** " جمع عَطَن: والعَطَنُ: مَبْرَكُ الإبل ومَربِضُ الغنم عند الماء، ضَرَبَت الإبلُ بِعَطَنٍ: أي روِيَتْ وبَرَكَتْ[٣].

وهذا فيه تذييل حسن[١] غير مستقل لعدم جريانه مجرى المثل، وهو نوع من الإطناب، فقد دلَّت الجملة الأولى " **إلى أوطانها**" بعدم وجود الوطن الكامل فأكدها بالجملة الثانية "**النوازع إلى أعطانها** " أي الإبل الغربية عن مرعاها ومبرك مائها، وذلك تأكيد لمفهوم المعنى الذي يريده الحجاج، حتى يستشعر المتلقي بالصلة بينه وبين المتكلم.

لذا آثر أيضًا حرف الجر " **إلى**" على حرف الجر "**عن**" لكي يجرى حوارًا بينه وبين المتلقي بدايته، لم آثرت ذلك؟

ثم ينتقل إلى صورة كنائية بقوله:" **لَا يَسْأَلُ الْمَرْءُ عَنْ أَخِيهِ، وَلَا يَلْوِي الشَّيْخُ عَلَى بَنِيهِ** " كناية عن صفة هول ذلك اليوم " **يَوْمُ الزَّاوِيَةِ** "، ولكنه صورها في صورة مليئة بكلمات نعجز عن التعبير عنها.

لذا جاء بالأسلوب الخبري المنفي بحرف "**لا**" والذي دلَّ على امتداد زمن نفي حدوث الفعل، كما دلَّ أيضًا على طول النفي ودوامه. قال بعض النحويين [٢]: "يمتدُّ بها الصوت ما لم يقطعه تضييق النفس"، فناسب امتداد لفظها بامتداد معناها، ولاقتران "**الألف**" بـ" **اللام**" فإنه يحول بين تأدية "**اللام**" لوظيفتها في الالصاق والضم والجمع كصورة من صور خصيصة الإلصاق التي تمتاز بها اللام.

ويتجلى معناها البلاغي في تأثيرها على حدوث الفعل من خلال السياق الجاري مجرى النفي كما "تشير الأداة لعدم حصول السؤال أبدا؛ فهي أداة للنفي المؤبد." [٣]. حيث تتشابه أدوات النفي في نفي حدوث الفعل إلا أن للنفي بحرف " **لا**" خصوصية يتمايز بها عن غيره؛ لأن فعل النفي بها هو في الحقيقة فعل الإنكار المؤبد.

---

(٢) المعجم الوجيز ص ٦١٠

(٣) المعجم الوجيز ص ٤٢٥.

(١) التذييل في البلاغة أن يؤتى بعد الجملة الأولى بجملة أخرى تشتمل على معناها، المطول ص٢٠٠.

(٢) النحو الكافي ٢٠٠/١.وانظر أثر النحاة في البحث البلاغي د/ عبد القادر حسين ص٢٥٠.

(٣) تأثير اقتران الحروف في دلالة النفي ، د. زياد حبوب أبو رجائي ص ٥٠ بتصرف.

لهذا كان من الضروري على الحجاج أن يستخدم أدوات توظف لخدمة المفهوم الذي يريد إيصاله للمتلقي، ومن ثم قرن حرف النفي "**لا**" بالفعل المضارع، " **لَا يَسْأَلُ الْمَرْءُ** " فكل هذه أدوات يستخدمها المتكلم لتوصيل مراده ومقاصده للمخاطب من خلال السياق.

وقوله: " **لَا يَسْأَلُ الْمَرْءُ عَنْ أَخِيهِ** " أي يوم لا يسأل المرء عن أخيه كناية عن صفة هول ذلك اليوم، وفيها أيضًا كناية تعريضيه عن صفة قطع صلة الرحم، لذا آثر لفظ " **أَخِيهِ**" عند الحديث على المَرءِ، لأن لفظ " **أخ** " يدل على مَنْ جمعك وإيَّاه صلبُ أبٍ أو بطن أمّ أو كلاهما معًا، أو رضاعة، كما أنها اسم صَوت يدلُّ على التوجُّع والتأوُّه من غيظ أو حزن [١].

كما جاء بالمسند إليه " **الْمَرْءُ** " معرفًا بـ " **أل** " التي تفيد العهد الذهني أي المرء المعهود لديكم، والمَرْء: الرجل أو الإنسان المعهود، وهذا فيه تضمين من قوله تعالى في وصف يوم القيامة: **{ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ، وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ، وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ، لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ }** [٢].

وقوله:" **وَلَا يَلْوِي الشَّيْخُ عَلَى بَنِيهِ** " كناية تعريضيه عن هول يوم الزاوية، حيث تحمل الكناية صفة عدم احترام الكبير، ومعنى: " **لَا يَلْوِي** " أي لا يفضله عليه ومنه حديث الرسول – ﷺ– **(لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يُوَقِّرْ كَبِيرَنَا، وَيَرْحَمْ صَغِيرَنَا، وَمَنْ لَمْ يَعْرِفْ لِعَالِمِنَا حَقَّهُ)** [٣]. و"الشيخ" هو: من تقدّم في السِّنِّ وصار شَيْخًا، أي أدرك الشيخوخةَ، وهي غالبا عند الخمسين، وهو فوق الكهل ودون الهرم[١]، لذا آثر لفظ " **بَنِيهِ** " عند ذكر"**الشَّيْخُ**"، ليطابق بين اللفظين، حيث إن " **بَنِيهِ**" شاب صغير السنّ، لتوكيد المعنى وتوضيحه، وبضدها تتميز الأشياء.

<u>دلالة أسلوب النفي الصريح:</u>

يُعَدُّ "**النفي**" من الأساليب اللغوية المشهورة، والتي لا غنى عنها في كلامنا، وكلام الخطباء والشعراء، ولكن لهذه الأساليب وغيرها أثر في التعرف على ثقافة

(١) اللسان مادة: "أخّ" ٩٠/١.
(٢) سورة عبس الآيات ٣٤: ٣٧.
(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا؛ (٦٢/١) من طريق الحميدي به، وقال:" هذا حديث صحيح على شرط مسلم. دار الكتب العلمية ٢٠٠٢م.
(١) اللسان مادة:"شاخ" ٢٤٥/٥.

الخطيب وبصمته الفنية، فضلا عن ذلك أن هذه الأدوات هي جزء من المعجم اللغوي للخطيب، مما يعني وجوب الوقوف عليها بأي شكل من الأشكال ؛ لأنه (باب من أبواب المعنى يرمي به المتكلم إلى إخراج حكم في تركيب لغوي مثبت إلى ضده وتحويل نعتى ذهني فيه الإيجاب والقبول من حكم يخالفه إلى نقيضه.)[٢]

ومن حضور "**النفي**" في خطبة دير الجماجم قول الحجاج: " **لا يسأل المرء عن أخيه، ولا يلوي الشيخ عن بنيه**" فمن الواضح أن النفي بالأداة " **لا**" يهيمن على الهيكل العام لهذين الجملتين، على أن النفي هنا تجسدت فيه الصورة الكنائية، وهي كناية عن صفة هول يوم الزاوية.

فبعد أن مهَّد الحجاج لهذه الصورة بالجملة التشبيهية في قوله:" **إذ وليتم كالإبل الشوارد إلى أوطانها**" تمهيدًا ليضع المتلقي في عتبات هذه الصورة بشكل يجعله يدرك ما تؤول إليه الصورة الكنائية، والتي بوجهها الظاهر تمثل صورة بصرية تقريرية إذ الرصد المباشر والواضح لجزئياتها، والذي لا يكتمل إدراكها إلا من خلال حاسة البصر.

ولكن هذا باطن الصورة، أما ما تشير إليه هذه الصورة في ظاهرها فهو عدم احترام الآخرين، أي أن هذا التصوير التقريري كناية عن عدم احترام الخلفاء ونقض أهل العراق للعهد والوعد.

ولكن الحجاج هنا حذف ما يشير صراحة إلى معنى الكناية وكأنه قال: من شدة خوفهم من تلك المعارك لا يسأل المرء عن أخيه كهول يوم القيامة **{يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ }**[١]، فيغيب لفظ" **شدة خوفهم** " واكتفى بذكر لازمها وهو عدم السؤال عن الأخ في ذلك الموقف، فمن خاف لابد له أن يتجرد من أحاسيسه ومشاعره تجاه الآخرين، ويلوذ بنفسه دون غيره.

مما يعنى أن أسلوب "**النفي**" هنا كان عبارة عن الصورة التقريرية البيانية المذكورة في النص وهي لازمة من لوازم المعنى المحذوف، وبالتالي فالصورتان

(٢) أسلوب النفي والاستفهام في العربية في منهج وصفي في التحليل اللغوي د/ أحمد عمايرة ص ٥٦ ، جامعة اليرموك الردن

(١) سورة عبس أية ٣٤.

المنفيتان "**لا يسأل المرء عن أخيه، ولا يلوي الشيخ عن بنيه** " مقصودتان في النفي على حدٍ سواء.

ثم ينتقل الحجاج من التشبيه والكناية إلى الاستعارة المكنية في قوله:" **حتى عَضَّكُمُ السِّلَاحُ، وَقَصَمكُم الرِّمَاحُ** " حيث شبه السلاح بالحيوان المفترس، ثم حذف المشبه به وترك له لازمة من لوازمه وهي "**عَضَّكُمُ**" على سبيل الاستعارة التخييلية، حيث تخيل الحجاج أن استخدام السلاح بشراسة في المعارك بالحيوان المفترس الذي ينقض على فريسته فيصيبها بالعض للقضاء عليها.

كما شبه أيضًا " **الطعن بالرمح** "بـ" **قصم السيف للشيء**" بجامع وجود الأثر والمؤثر في كل، وحذف المشبه به السيف على سبيل الاستعارة المكنية، إيغالا في التشبيه، وترك له شيئًا من لوازمه وهو القصم، على سبيل الاستعارة التخييلية، حيث تخيل الحجاج أن شدة رمي الرمح بقوة من الجنود في المعركة وفتكها بالعدو، كالسيف الذي يقصم به. وقوله:قصمكم" إيغال بديع في بيان تمام الفتك، إشارة إلى أنه فتك قوة وإجلال، ورهبة، وهو ترشيح للاستعارة أنه من ملائمات المستعار منه.

وبعد أن وصف الحجاج المعركة الشرسة واستخدم الفنون البلاغية التي تروق للمتلقي سماعها في سردها وبيان سيناريست المشهد التمثيلي في يوم الزاوية وما حدث فيه، تطرق إلى ذكر اسم الموقعة صراحة فقال:" **ثُمَّ يَوْمُ دَيْرِ الْجَمَاجِمِ، وَمَا يَوْمُ دَيْرِ الْجَمَاجِمِ ؟!** " فجاء بـ" **ثُمَّ** " التي تفيد البعد الزمني، والتي توضح أن هذه الأحداث لم تمر مرورًا سريعًا، وهذا دقة في الوصف.

ففي محرم (سنة ٨٢ هـ) اصطدم الجيشان جيش الحجاج وجيش عبد الرحمن ابن الأشعث الكندي، في الزاوية (بالقرب من البصرة) وتمكن الحجاج من هزيمة جيش عبد الرحمن هزيمة نكراء، و" يُذكر أن الحجاج قد قطع رأس أغلب الأسرى في هذه المعارك"[(١)]، ثم استعاد البصرة وعفى عن أهلها بعد تلك المعارك الطاحنة.

لذا آثر الحجاج حرف العطف " **ثُمَّ**" دون غيره لاختصار المشهد التمثيلي الذي يفيد البعد الزمني مع التراخي، ويليه ذكر ظرف الزمان " **يوم**" ثم يضيفه إلى

(١) فتوح البلدان ، أحمد بن يحي البلاذري ٦/ ٤٥٢، ٤٦٠ ، ٤٨٠ و أنساب الشرف، ٦/ ٤٥٢ بتصرف.

المكان، " **دير الجماجم**" لتحديد زمان ومكان الموقعة في صورة موجزة، من خلال الإسناد العقلي علاقته الزمانية.

كل ذلك من خلال الأسلوب الخبري والذي خرج على خلاف مقتضى الظاهر وأريد به الافتخار والاعتزاز، والذي سرعان ما ينتقل منه إلى الأسلوب الإنشائي الطلبي المعبر عنه بالاستفهام، والذي خرج من معناه الحقيقي وأريد به التعجب، ثم يخرج إلى تقديم " الجار والمجرور" **بها**" لقصر الموصوف على الصفة قصرًا ادعائيًا، حيث كان بها المعارك والملاحم.

و "**مُلاحَم**": اسم مفعول من لاَحَمَ وأسند إلى "**يوم**" لعلاقة المفعولية، والمَلْحَمَةُ: الحربُ الشديدة، لذا أطنب على سبيل التذييل فيها للتأكيد والاعتناء بشأنه.

ويجوز أن يكون في اللفظ "احتراس" حتى لا يظن المتلقي أنها معركة عادية، بل هي معركة توصف بالملحمة، يسرد فيها أحداث بطولية، وتصف مغامرات مدهشة عن أبطالها فهي تصف ملحمة أدبية تعتمد على عناصر الاندهاش والخوارق والخيال. فتكون بمثابة عمل قصصيٌّ له قواعدُ وأصول، يشاد فيه بذكر الأبطال والملوك، ويقوم على الخوارق والأساطير.

ثم كني عن صفة الانبهار من تلك الواقعة بقوله:" **بِضَرْبٍ يُزِيلُ الْهَامَ عَنْ مَقِيلِهِ، وَيُذْهِلُ الْخَلِيلَ عَنْ خَلِيلِهِ**" فهو في هذه الصورة يصف المعركة التي تعد أشد واقعة، لما جرى فيها من القتل الشديد وسفك الدماء، وقطع الرؤوس، فهي تنسي وتشغل الأخ عن أخيه من قوة الدهشة والانبهار.

وقوله: " **بِضَرْبٍ يُزِيلُ الْهَامَ عَنْ مَقِيلِهِ** " كناية عن القتل بوسيلة قطع الرؤوس في تلك الموقعة، حيث إنه عبَّر عن ذلك بقوله: " **بِضَرْبٍ** " وكأنه يريد أن يذكر مقدمة لبيان كيفية الضرب تمهيدًا لمشهد المعركة، ثم يأتي بالشيء الأقوى من الضرب وهو "**الإزالة**"، وعبر عنه بالفعل المضارع " **يزيل**" لبيان الاستمرارية والتجدد في الحدث.

وآثر لفظ " **يُزِيلُ** " دون غيره لأن الحرب مزيلة مهلكة مدمِّرة، وزيَّل الرؤوس: أي فرَّقها، لذا تلاها بلفظ " **الْهَامَ** " والْهَامَةُ: أَعلى الرأْس أَو وسطه[1]، وفيها

(١) المعجم الوجيز ص ٦٥٢.

وصف دقيق مقذذ يظهر مخلفات تلك المعركة، و"مقيله " يقال: طعنَه في مَقِيل حِقده: أي في صَدره. (١)

والصورة هنا تظهر تدفق الدماء في تلك الموقعة، فقد أطنب الخطيب في سرد مشاهد تلك الموقعة عن طريق ذكر تفصيل بعد الإجمال، فكأنه أجمل القول في قوله: "**وما يوم دير الجماجم**" بدل بعض من كل، لذا جاءت جملة: " **بِضَرْبٍ يُزِيلُ**" مفصولة عن جملة: " **بها المعارك والملاحم**" لكمال الاتصال.

كل تلك الأحداث التي تم سردها من خلال الفنون البلاغية المختلفة اندرجت تحت نداء الحجاج الأول لأهل العراق، والذي استفتح به خطبته. وتلاحظ من ذلك النداء الدلالة الفردية في لفظ "**الشيطان**" والذي أتبعه بصفات متعددة، مع بيان سبب تسميته لذلك من خلال سرده لأحداث تلك الموقعة، وما حوتها من مفارقات.

دلالة أثر المشاهد والمعارك في نداء الحجاج الأول:

حينما نقرأ نص النداء الأول كأننا خلُعنا من زماننا حيث نرى محتواه الصراعي وخاصة في وصفه لموقعة دير الجماجم ويوم الزاوية، ولو تأملنا جانبًا من المشهد فنلحظ فرار قائد الانقلاب ابن الأشعث وخلفه جنوده بقوله:" **إذ وليتم كالإبل الشوارد**" و" **لا يسأل المرء عن أخيه، ولا الشيخ عن بنيه** ".

وهنا نرى فتك الحجاج بأعدائه، والدم يسيل من القتلى والجرحى، ونشم رائحة الموت في جنبات ساحة المعركة بقوله:" **حتى عضكم السلاح وقصمكم الرماح**" وقوله: " **وما يوم دير الجماجم ؟ بها كانت المعارك والملاحم** " و" **وتنهزمون سراعًا**"

والحجاج هنا يعايش أحداث معركته ويسوغها، وكأنها تجربته الشعورية الخاصة – وكيف لا – وقد توحد الكل بعد انتصاره على ابن الأشعث وبعد عفوه عن أهل العراق بعد تلك الموقعة، وكان لصور المعركة هذه الأثر في تركيب صور الحجاج فقد استمد من أجوائها صورًا ووظّفها في العديد من رسائله في خطبته.

(١) اللسان ، مادة " مقل" ٨/ ٣٣٦، ٣٣٧.

ومن ثم ظهر الجانب الحسي للصورة البيانية على هيئات وصور متعددة، كان من أبرزها ؛ الصورة الحركية، حيث استعان بها الحجاج في رسم صوره البيانية.

ومن ثم استمد الحجاج تشبيهاته من مصدرين: **أحدهما:** مادي محسوس، **والآخر:** معنوي معقول، ولم يغرب في تشبيهاته، وإن أراد في بعضها استعراض بعض ثقافته، وفي بعضها هجومًا على أهل العراق.

ونلاحظ أن تشبيهات الحجاج كما أنها تعكس فنيته في تشكيل صوره، إلا أنها تكشف – غالبًا– عن جانب التعالي وحدة الهجوم في شخصيته.

المبحث الثاني

• الفنون البلاغية في النداء الثاني

والنداء الثاني: اشتمل على الدلالة البلاغية للجملة والأسلوب، عالج من خلالها ما يترتب عليه من آثار لدى المخاطَب، والذي يتمثل في إقناعه، وحثِّه، وإرشادهِ، وتوجيههِ.

وقد نبغ الحجاج في هذا النداء من خلال كلمات تلك الخطبة، حيث كانت السيل لاقتحام القلوب، واستمالة المشاعر، وطريقًا إلى إيصال أرائه وأفكاره لسامعيه، وإقناعهم بها. ومن ثم سرد عدة قضايا مستدلاً عليها بالحجج والبراهين. سوف نذكرها لاحقًا – **بمشيئة الله تعالى**–.

لذا تعد خطبته تلك فن من فنون النثر القولي الشفهي، فكانت منبعًا اعتمد عليه الحجاج لبيان سياسته. وقد انفرد في خطبته هذه بجملة من السمات والخصائص ميزته ببعض الشيء – وخاصة في العصر الأموي الذي عاش فيه– من خلال الغوص في عالم التواصل بينه وبين المخاطب حينما ناداهم مرة أخرى فقال:

" **يا أهلَ العراقِ، الكَفَراتُ بعدَ الفَجَرات، والغَدَرَاتِ بعدَ الخَترات، والنَّزوةَ بعد النَّزوات. إنْ بُعثْتم إلى ثُغوركم غَلَلْتُم وخُنْتم، وإن أمْنتُم أَرْجَفْتُم، وإن خِفْتُم نَافَقْتُم، لا تَذكُرون حسنةً، ولا تشكرون نعمة. هل استخفَّكم ناكِثٌ؟ أو استغواكم غاوٍ، أو استنصَرَكم ظالم، أو استعضدكم خالعٌ، إلاّ تبِعتموه وآوَيْتُموه، ونصرتُموه ورحبتمُوه.**" (١)

والحجاج كان واليا على العراق ورغم تبعيته لأمير المؤمنين عبد الملك بن مروان الخليفة الأموي(٢) في ذلك الوقت، لكنه يتصرف في العراق كحاكم مستقل تمام الاستقلال.

لذا نراه هنا يحاول إقناع المخاطبين بطبائعهم التي جبلوا عليها، ومن ثم يرجع إلى المقدمة الندائية والتي ذكرها في بداية خطبته ليبين الفعل الناتج عن قوله

(١) البيان والتبيين ٣٠١/٢.

(٢) البداية والنهاية ابن كثير ٤ / ٢٠٠ بتصرف

السابق، فيعود إلى الأسلوب الإنشائي الطلبي المعبر عنه بالنداء في قوله: " **يا أهل العراق**". فيناديهم نداء الكاشف لطباعهم ؛ لذا رصَّع كلماته بفنون البلاغة المختلفة التي توصله إلى هدفه، معتمدًا على الحوار التواصلي بينه وبين متلقيه. والذي نفهمه من خلال السياق.

فجاء بجمع المؤنث السالم للتحقير من شأنهم في قوله: " **الْكَفَرَاتِ بَعْدَ الْفَجَرَاتِ** " وكَفَرَات: جمع كفرة والمراد الكفر نفسه لا الكافر، وهو اسم مرة، وجمعه للتعدد والتكرار في التمرد، وأصل الكفر النكران والجحود، وهو المناسب للسياق.

و" **الْفَجَرَاتِ** "جمع فجرة، والفُجر: المجاوزة في الفساد والخصومة لا الفاجر، ومنه قول الصحابي لرَسُولَ اللهِ –ﷺ–: وَغَدَرَاتِي وَفَجَرَاتِي؟ [(١)]. ولو أرد التحقير للكافر والفاجر لجمع على كوافر وفواجر، مثل قوله: "خوالف" لـ "مخلفين" في سورة براءة في قوله تعالى: **{رَضُواْ بِـأَن يَكُونُواْ مَـعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ}** [(٢)].

ومن ثم قدَّم لفظ "**الْفَجَرَاتِ**" على لفظ "**الْكَفَرَاتِ**" بذكر ظرف الزمان[(١)] " **بَعْدَ**" والذي يفيد البعد الزمنى، فمن لطيف ما وقع في هذه الجملة من البلاغة تقديم "الفجرات" على "الكفرات".

وهذا ذكاء من المخاطب لأن الفجور يوصل للكفر، وهذا فيه إطناب بذكر العام بعد الخاص، وفيه أيضًا صحة أقسام[(٢)] حيث استوفي الحجاج أقسام المعنى الذي يريده، مما ساعد على إبراز المعنى وتقويته وإيضاحه وإثارة الانتباه. فساعد

---

(١) الحديث صحيح، وصححه الهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، علي بن أبي بكر الهيثمي نور الدين تحقيق: حسام الدين القدسي، مكتبة القدسي، والحافظ ابن حجر في الأمالي المطلقة، والألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة، وغيرهم. وأصح هذه الأسانيد ما رواه الطبراني" فَقَالَ: أَرَأَيْتَ رَجُلًا عَمِلَ الذُّنُوبَ كُلَّهَا، فَلَمْ يَتْرُكْ مِنْهَا شَيْئًا، وَهُوَ فِي ذَلِكَ لَمْ يَتْرُكْ حَاجَةً وَلَا دَاجَةً إِلَّا أَتَاهَا، فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ قَالَ: «فَهَلْ أَسْلَمْتَ؟» قَالَ: أَمَّا أَنَا فَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّكَ رَسُولُ اللهِ، قَالَ: «نَعَمْ، تَفْعَلُ الْخَيْرَاتِ، وَتَتْرُكُ السَّيِّئَاتِ، فَيَجْعَلُهُنَّ اللهُ لَكَ خَيْرَاتٍ كُلَّهُنَّ»، قَالَ: وَغَدَرَاتِي وَفَجَرَاتِي؟ قَالَ: «نَعَمْ» قَالَ: اللهُ أَكْبَرُ، فَمَا زَالَ يُكَبِّرُ حَتَّى تَوَارَى".

(٢) سورة التوبة أية ٨٧.

(١) " بعد "ظرف زمانٍ، انظر: " النَّحو الوافي " (٢/٢٨٣، ٢٨٤).

(٢) وهو عبارة هن: استيفاء المتكلم أقسام المعنى الذي هو آخذ فيه ، بحيث لا يغادر شيئًا ، انظر تحرير التحبير لابن أبى الأصبع المصري ،تحقيق د/ حنفي محمد شرف ، ص ١٧٣، ط/ ١٩٩٥م.

على إعمال ذهن وتعمق تفكير من المخاطب من خلال ذكر بعض القضايا التي يريد المتكلم معالجتها من خلال صحة تقسيماته وهي كالتالي:

- **القضية الأولى " الكفراتُ بعد الفجرات "**

وثمة قضية يطرحها الحجاج وهي قضية **(الفجور – والكفر)**، فـ" **الفجور**" الذي يُلْزِم صاحبَه بفعل المنكرات ويعطيه القدرة على الانغماس في التعامل مع ما هو مُحرَّم، مما يترتب عليه ظهور إفساد في شؤون الدولة، و" **الكفر**" يكون نتيجة حتمية تُؤسس على ما سلف، وعليه يأتي ذكر الخاص بعد العام ليكون مسعفًا روحيًا يعزز ما لدى المتلقي من طاقات كامنة وقناعات ثابتة، هذا بالإضافة إلى كونه مسعفًا فنيًا بنى عليه المتكلم قضيته، وهي قضية "**الفجور والكفر**" فهذان مقومان جوهريان لشخصية المرء، ومسيرته في الحياة وحضوره الفاعل أو حضوره الطاغي.

وهنا لا يقف الحجاج موقف المتأمل في الأحوال التي تمر والمخاطر التي تعصف بالمجتمع ؛ بل يأتي ليبين عاقبة اصطدام صفة **(الفجور)** أو ما يترتب عليها **(الكفر)** في شخصية الناصح ومدى غلبة إحداهما على الأخرى.

ومن ثم تأتي الجملة الخبرية لتُعزز حضور شخصية الحاكم وحسن إدارته لشؤون الدولة والرعية. ويكون بهذا الوصف الذي يحمل معنى الكفر بعد الفجر، يصوغ لنفسه معاني العقاب في حال الخروج عن طاعة الحاكم.

هذا بالإضافة إلى وجود الجناس الناقص بين" **الْكَفَرَاتِ، الْفَجَرَاتِ** " أحدث نغمًا موسيقيًا يثير النفس وتطرب إليه الأذن. كما يؤدّي إلى حركة ذهنية تثير الانتباه لما ينطوي عليه من مفاجأة تقوي المعنى عن طريق الاختلاف في المعنى، ويزداد الجناس جمالاً إذا كان نابعًا من طبيعة المعاني التي يعبر عنها الأديب ولم يكنْ متكلَّفًا وإلا كان زينة شكلية لا قيمة لها.

- **القضية الثانية: " الْغَدَرَاتِ بَعْدَ الْخَتَرَاتِ"**

وبعد ما سبق ذكره في القضية الأولى يأتي الخطيب بذكر قضية ثانية وهي قضية " **الغدر والإفساد** " فيقول: " **وَالْغَدَرَاتِ بَعْدَ الْخَتَرَاتِ**"، بعطفها على القضية الأولى للتوسط بين الكمالين، ثم يأتي بنفس الفنون البلاغية السابق ذكرها ليظهر مدى عاقبة، " **الغدر والإفساد**". في الأرض.

ومن ثم جاء بالبعد الزمني المعبر عنه بـ "**بعد**" فقال: "**وَالْغَدَرَاتِ بَعْدَ الْخَتَرَاتِ**" وخَتَرَتْ نَفْسُهُ: أي فَسَدَتْ وخَبُثَتْ، وخَتَرَ صَاحِبَهُ: أي غَدَرَ بِهِ أَقْبَحَ الْغَدْرِ، وآثر لفظ "الختر" لأنه شبيه بالغدر والخديعة، وقيل هو الخديعة بعينها، وقيل: أسوء الغدر وأقبحه(١)، ومن ثم جاء الحجاج بهذا اللفظ ليناسب مقام الغدر، بل هو أقبح منه.

و"**الْغَدَرَاتِ**" واحدها "**الغدر**" وهي الخيانة، ويتمثل في نقَض العهد وترَك الوفاء به.(٢) لذا قدم لفظ " **الْغَدَرَاتِ** " لمواجهة المخاطب بالحالة التي هم عليها فهم غادرون، ثم يأتي ويفصل أن غدرهم هذا جاء بعد أن خبثت أنفسهم، وبعد استبطان الشيطان لهم بتزيين أعمالهم أمام أعينهم.

وعندما يُطلقُ الإنسان أحكامًا لا بد أن تكون تلك الأحكام منبثقة من تجربته في الحياة، فكيف إذا كان هذا الإنسان حاكمًا وقائدًا ومسؤولًا. وعليه فقد أطلق الحجاج حكمًا على المخاطبين بأنهم غادرون وجائرون وظالمون وفاسدون، مع ذكر الدليل فقد غدروا به حينما بايعوا ابن الاشعث على الولاية قبل يوم الزاوية وموقعة دير الجماجم، حيث إنهم أرادو التخلص من حكم الحجاج في ذلك الوقت. فغدروا وخانوا مبايعتهم له(١).

لذا جاء هنا بإيهام التضاد بين (**الغدر**) و(**الختر**)، ليظهر لنا قضية أخرى تقوم عليها معادلة الحياة التي تتأرجح بين الغدر والعطاء، بين القبول والرفض، وهي قضية جوهرية أصبح لحضورها معنى ثابت، خاصة بعد أن قُرنت ضمن مفهوم الطباق، فكلّ من هاتين المفردتين لهما إرثهما الديني والاجتماعي والنفسي الذي يحدث هذا الاصطدام، فيتولد عنه معنى جديد هو القبول أو الرفض لأوامر الحاكم.

---

(١) اللسان مادة "ختر" ٣/ ٢٣.

(٢) المعجم الوجيز ص ٤٤٦.

(١) حيث كَانَ ابْنُ الْأَشْعَثِ يُحَرِّضُ النَّاسَ عَلَى الْقِتَالِ ، حَتَّى دَخَلَ الْكُوفَةَ فَبَايَعَهُ أَهْلُهَا عَلَى خَلْعِ الْحَجَّاجِ وَعَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ. وَتَفَاقَمَ الْأَمْرُ ، وَكَثُرَ مُتَابِعُو ابْنِ الْأَشْعَثِ عَلَى ذَلِكَ ، وَاشْتَدَّ الْحَالُ ، وَتَفَرَّقَتِ الْكَلِمَةُ جِدًّا ، وَعَظُمَ الْخَطْبُ ، وَاتَّسَعَ الْخَرْقُ ، فَقَاتَلَ الْحَجَّاجَ خَمْسَ لَيَالٍ أَشَدَّ الْقِتَالِ ، ثُمَّ انْصَرَفَ فَلَحِقَ بِابْنِ الْأَشْعَثِ فقتله. انظر البداية والنهاية ٩٩/٥

- **القضية الثالثة: " النَّزْوَةِ بَعْدَ النَّزَوَاتِ ".**

وآثر أن يختم تعداده لقضاياه بها؛ لأنها قضية هامة للغاية وهي قضية " **وَالنَّزْوَةِ بَعْدَ النَّزَوَاتِ** "، ونزوات القلب: نزعاته الشديدة وميله القويّ، كنَزْوَة الغَرِيزَةِ وغيرها. وقولك: قد ثارت في رأسهم نزوةُ أي: صار الغضب فيهم بحدّته وتقلُّباته وعدم استقرار. والنزوة في علم النفس: "هوًى مفاجئ شديد لشيء ما وسرعان ما يزول" (١).

لذا خالف هنا الحجاج العرف حيث يبدأ الإنسان بالنزوة ثم تتبعه النزوات لعدم تحكمه في ذلك، ولكنه قال: " **وَالنَّزْوَةِ بَعْدَ النَّزَوَاتِ** " فجعل الجمع ينبثق منه الإفراد إذ كان عليه أن يقول " **النَّزَوَاتِ بَعْدَ النَّزْوَةِ** " ولكنه جاء بذلك مراعاة للسجع المرصع به تلك القضايًا.

فالجمع بين المادة الواحدة من حيث الإفراد والجمع فيه تكرار لتأكيد المعنى وتوضيحه، فـ **(النَّزْوَةِ)** و**(النَّزَوَاتِ)**، ثنائية هي أصل الكون؛ لأن الحياة قائمة في الأصل على صراع بينهما أزليا ينقطع ولا ينتهي، وهي قضية حياتية وجودية يتداولُها الناس في لحظات تأملية فيما حاق بهم أو بغيرهم بعد ممارسة نزواتهم وعدم بعدهم عنها.

وبعد أن انتهى الحجاج من الرسائل التي أراد بثها من خلال قضاياه التي عرضها والتي فُهِمَت من السياق، راعى مقتضى حال المتكلم، فأردف أسلوب الشرط وجوابه فقال: "**إِنْ بُعِثْتم إِلَى ثُغُورِكُمْ، غَلَلْتُمْ وَخُنْتُمْ، وَإِنْ أَمِنْتُمْ أَرَجَفْتُمْ، وَإِنْ خِفْتُمْ نَافَقْتُمْ**،".

وآثر أداة الشرط " **إِنْ** " ؛ لأنها تفيد عدم القطع بوقوع الشرط في المستقبل فهي محتملة، على الرغم من مجيء الفعل الماضي بعدها.

وعبَّر الفعل الماضي دون المضارع في قوله: " **بُعِثْتُم** " لأنه يتحدث عن واقعة حدثت يوم الزاوية، حيث يصف بدقة ما حدث آنذاك،" حينما دَخَلَ ابْنُ الْأَشْعَثِ الْبَصْرَةَ، فَخَطَبَ النَّاسَ بِهَا فَبَايَعُوهُ عَلَى خَلْعِ عَبْدِ الْمَلِكِ وَنَائِبِهِ الْحَجَّاجِ بْنِ يُوسُفَ"(٢)

(١) الصحة النفسية والإرشاد النفسي د/ علاء الدين كفافي ص٨٠
(٢) البداية والنهاية ٤/٢٠٠

والبَعْثُ: هو الإرسال ، وآثر لفظ " الثَّغْر" لأنه الموضع الذي يُخافُ هجومُ العدُوِّ منه، أو فرجة في الجبل أو غيره [١]، حيث اِسْتَقَرَّ أهل العراق فِي ثَغْرِ الجَبَلِ أي: فِي فُرْجَةِ الجَبَلِ أو ثَغْرُ الوَادِي بين العراق والشام. وهو موضع غير محصَّن يُخشى هجوم العدو منه.

و" غللتم" "غلَّ صدرُه ": كان ذا غِشّ أو ضِغْن أو حقد، غَلَّ الرَّجُلُ: خَانَ فِي مَغْنَمٍ وَغَيْرِهِ، لقوله تعالى: **{ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ }** [٢]

و"**خنتم** " فـ "الخائن "من لَمْ يُحَافِظْ عَلَى الْعَهْدِ، أَيْ غَدَرَ بِهِم، وخَانَ عَهْدهم ولَمْ يَرْعَ وطنه بنقض عهود ولائه ومحبته وباعه من العدو، خَانَ وَطَنَهُ: تَخَلَّى عَنْ وَاجِبِ الْمُوَاطَنَةِ وَالإِخْلاَصِ لِلْوَطَنِ.

لذا دلت تلك الجملة على الكناية عن صفة عدم الوفاء بالعهد، حيث إنهم غَلَّوا فِي البِلاَدِ فذَهَبَوا فِيهَا بالحقد الكامن والضغينة والعداوة، ومن ثم نقضوا بيعتهم له.

وقوله: "**إلي ثغوركم** " أي أنهم في حالة بعثهم إلى ثغورهم يتفقون مع الأعداء للقضاء عليه، فهي كناية تقدم الحقيقة مصحوبة بقرينتها الدالة عليها. حيث إنهم مكّنوا دخول ابن الأشعث من مداخل العراق.

ومن ثم لحق تلك الكناية بكناية عن صفة أخرى تتمثل في الخيانة والغدر مصحوبة بشرط في قوله: " **وَإِنْ أَمِنْتُمْ أَرَجَفْتُمْ** "، وأَمِنَ الرَّجُلَ على كَذَا: وَثِقَ بِهِ، واِطْمَأَنَّ إِلَيْهِ.

ولكن الحجاج آثر لفظ " **أَمِنْتُمْ** " لما فيه من توفر الحماية والأمان. وأمن الوطن يتمثل في تشكيل سياسات تضمن دفاعا وطنيا فاعلا ضد الأخطار الخارجية والداخلية، والأمن هنا يأتي بمعنى اطْمَأَنَّ فيه أَهلُه. ولكن أهل العراق لم يأمَنوا مكر الحجاج عليهم دائمًا، لذا عندما أمَّنهم ابن لأشعث بايعوه مباشرة.

وقوله: " **أَرَجَفْتُمْ** " الرَّجْفُ: الإِضْطِرَابُ وَالخَوْفُ وَالهَلَعُ، رَجَفَ فلانٌ: لم يستقرّ لخوفٍ عرض له، ورَجَفَ القومُ: أي تهيَّئُوا للحرب[١]. لذا آثر لفظ " رجف"؛ لأنها

(١) المعجم الوجيز ص ٨٤

(٢) سورة آل عمران أية ١٦١.

(١) اللسان مادة " رجف"٨٢/٤.

تحمل معنى صوت الشيء الذي يتحرك كرجف القلب: أي صوت نبضه عند الفزع، فهي تحمل معنى الحركة والاضطراب.

وبين " **أَمِنْتُمْ، أَرَجَفْتُمْ** " طباق إيجاب ظاهر يُبيِّن المهمات المحددةً التي تُلبي دواعي التجربة الشخصية لدى المتكلم، والتذوق الجمالي، والتأثير النفسي لدى المخاطب، وليس مجرد حلية لفظية أو تلاعب بالكلمات، حيث إنه يظهر بواسطته صفات الخلائق على اختلاف ألوانها وأشكالها، حتى يبين الأسلوب الذي يتمحور في شكل تراكيب حيث تختلف باختلاف الحالات النفسية وحجم الانفعالات المصاحبة للأديب حال إفصاحه عن رؤاه وفلسفته.

وعليه فإن وظيفة (الطباق) الأساسية هنا هي وظيفة معنوية تقوم على تصوير طبيعة الحياة تصويرًا دقيقًا، وإبراز حياة الدولة والمجتمع في مختلف الميادين، والموضوعات.

لذا صور الطباق مع الكناية عن صفة الخيانة والغدر كيفية الانقلاب على الوالي بتهيئة الحرب ضده، جانبًا من جوانب تلك الحياة، الذي يمكن استثماره في معرفة كليات ذلك العصر وجزئياته على حد سواء. وهذا يؤكِّد من ناحية أخرى أن "التضاد نوع من التوازن الضروري لاستمرار الكون والكائنات، المادي منها والمعنوي" (٢)

ثم ثلث بكناية عن صفة الجبن مصحوبة بشرط أيضًا في قوله: " **وَإِنْ خِفْتُمْ نَافَقْتُمْ** " والخَوْفُ: انفعال يحدث في النفس لتوقع مكروه أو أذى" (١).

وفي علوم النفس هو: " سلوك يتميز بصبغة انفعالية غير سارّة، تصحبه ردود فعل حركية مختلفة، نتيجة توقع مكروه (٢). لذا آثر لفظ " **خِفْتُمْ** " لأن فيه فَزِعًا مُرْهَبًا، فهو يصف حالهم بدقة شديدة حينما شعروا بالاضطراب بسبب اقتراب مكروه توقعوه وهو انتصار الحجاج على ابن الاشعث في معركة دير الجماجم، فتهيَّبوا، وارتعبوا، وفزِعوا ووقفوا خائفين من تهديداته.

ونلاحظ هنا أن الحجاج أتي بعدة كنايات متوالية فقال: " **إن بعثتم إِلَى ثُغُورِكُمْ، غَلَلْتُمْ وَخُنْتُمْ** " كناية عن نقض العهد، وقوله: " **وَإِنْ أَمِنْتُمْ أَرَجَفْتُمْ** " كناية

(٢) البديع في شعر شوقي د. منير سلطان، ص ٢٥١، منشأة المعارف الإسكندرية، ط/ ٢، ١٩٩٢ م.
(١) اللسان ، مادة: "خوف" ٣/ ٢٥٢.
(٢) الصحة النفسية والإرشاد النفسي د/ علاء الدين كفافي ص ٢٠٠.

عن الغدر والخيانة، وقوله:" **وَإِنْ خِفْتُمْ نَافَقْتُمْ** " كناية عن الجبن، لتصوير حال المخاطب تصويرًا دقيقًا، ومن ثَم جاء بهذه الكنايات مصحوبة بشرط، فطغيان هذا الحاكم الجبار عليهم وجبروته وشدته وتعسفه في الأحكام وقوة شكيمته، لأنه يعلم طبيعة حالهم، لذلك هو يحكمهم بطريقة معينة كأنه يعلم ما يدور في خلجات نفس المخاطب ويعلمها علم اليقين أكثر من علمهم هم بأنفسهم.

وما زال الحجاج يكرر كناياته عن الصفة، ولكن ينتقل من مصاحبتها لأسلوب الشرط إلى الكناية المصحوبة بأسوب النفي بقوله: " **لَا تَذْكُرُونَ حَسَنَةً، ولا تَشْكُرُونَ نِعْمَةً.**"

وهي كناية عن صفة كفران النعمة أي: جحودها وإنكارها، ومثلت الكناية هنا دليل على قوة النفس، وقدرة البيان، وصحة الذكاء من خلال ما يرشد إليه سياق الكلام أو دلالة الحال، والذي في استخراجها يعتمد على ذكاء القارئ والسامع، وتعول على إثارة حسه، وبعث خياله وتنشيط نفسه، حتى يفهم بالقرينة ويدرك باللمحة، ويفطن إلى معاني الألفاظ التي طواها التعبير.

كل ذلك من خلال خروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر حيث أراد ذم وتوبيخ المخاطب، لأنهم ينكرون عطاء أوليائهم لهم، وجاء هنا بصريح النفي لأنه يعبر به عن طريقة إنكار أو نقض فكرة أو حجة لهم عليه.

وحرف النفي"**لا**" هنا غير عامل لأنه دخل على الجملة الفعلية التي فعلها مضارع، لينفي زمن الفعل في الحاضر، أي أن هذه طبيعتكم التي لا يمكنكم التخلص منها عبر الزمان، بل هي متجددة من حين لآخر. فالنفي هنا مؤَّبد. ومن ثم حذف المسند إليه والتقدير" أهل العراق"، "والحذف يرجع إلى ما يعمد إليه المتكلم، بحيث لا يغمض به المعنى، ولا يلتوي وراءه القصد، بل يقوى حبكها، ويتكاثر إيحاؤها "[١].

ولتحسين المعنى جاء بالمقابلة [٢] الثنائية بين " **لَا تَذْكُرُونَ حَسَنَةً** " وهما معنيان متوفقان أي ليس بينهما تضاد ثم أتى بعد ذلك بما يقابلهما على الترتيب بقوله: " **ولا تَشْكُرُونَ نِعْمَةً** "، وسر جمالها توكيد المعنى وتوضيحه.

---

(١) خصائص التراكيب دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني تأليف: محمد محمد أبو موسى ، ص٥٠، ط/٤ ، ١٩٩٦م، مكتبة وهبة.

(٢) المقابلة" هي أن يؤتى بمعنيين متوافقين،أو أكثر،ثم بما يقابل ذلك على الترتيب " الايضاح ص١٠٠.

ولكن آثر مجيء "**الحسنة**" مع " **تذكرون** "، مجيئ "**النعمة**" مع " **تشكرون**" وذلك لأن معنى: " **تذكرون** " يدل على ما يُحْفَظُ في الذَّاكِرَةِ مِنَ حَوادِثَ أَوْ مُخْتَلِفِ الصُّوَرِ، لذا سبقها بالنفي، وكأنه يريد أن يقول: أنكم لا تحفظون أي فِعْلٌ حَسَنٌ مِنْ أَفْعَالِي وَأَعْمَالِي الجَيِّدَةِ في ذاكرتكم.

ومن ثم أتبع "**النعمة**" بـ" **الشكر**"؛ لأن الشُّكْرُ: عِرفان النعمة واظهارُها والثناء بها، فمن شكر القليل استحق الجزيل، وقال النبي -ﷺ- **(لا يَشْكُرُ اللَّهَ مَنْ لا يَشْكُرُ النَّاسَ)**[(١)]، وقيل في الأمثال[(٢)]:" **اشكرْ من أنعم عليك، وأنعِمْ على من شكرك**" ومنه قوله تعالى: **{ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ }** [(٣)]. فالشُّكْرُ الثناء على المحسن بما أولاك من المعروف، فشُكْراً لَكَ فيها معنى الْعِرْفَانُ لَكَ لِنِعَمِكَ وَفَضْلِكَ، الاعْتِرَافُ وَالامْتِنَانُ بِمَا قَدَّمْتَ.

النِّعْمَةُ: ما أَنْعِمَ به من رزقٍ ومالٍ وغيره [(٤)]، حيث جعلهم الحجاج فِي نِعْمَةٍ شَامِلَةٍ من حُسْنِ حَالٍ وَمَالٍ، أَو منَّة أو جميل أو معروف، ومن ثم فالحسنة تعيش بعيدًا عن دائرة الشعور، وقد تكون بعيدة التذكَّر لحين استدعائها منه، أما النعمة فهي مرتبطة بالشكر ارتباطًا وثيقًا.

وكأن الحجاج يريد أن يقول: أن من كان طبعه وعادته كفران نعمة الناس وترك الشكر لمعروفهم، وكان ذلك ناتجًا عن سوء تصرفه وجفائه، فإنه يغلب عليه في مثل هذه الحال أن لا يشكر الله. فعليهم أن يشكروني على معروفي فيهم وإحساني إليهم، وأن يقابلوا إحساني بإحسان، وأن يثنوا عليَّ خيرًا في مقابل إحساني إليه، وبذلي المعروف لهم، فهذا من مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال. كل هذه المعاني دلت عليه تلك الكلمات القليلة.

وفي تنكير وإفراد " **حسنة، ونعمة**" دلالات، إذ أنّ للحجاج فتوحات يذخر بها التاريخ في كل يوم منذ توليه لحكمه، ولكن المقام هنا لا يحتاج إلي تعدد

---

(١)) رواه أحمد وأبو داود والبخاري في الأدب المفرد الجامع للآداب النبوية ، محمد بن إسماعيل البخاري أبو عبد الله، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني ص٣٠٠، دار الصديق ط/٢، ٢٠٠٠م، وهو حديث صحيح صححه العلامة الألباني.

(٢) الأمثال الشعبية الفرعونية ، محمد أبو رحمة ص ٥٠ ، ط/١,٢٠١٠ حابي للنشر.

(٣) سورة إبراهيم أية ٧.

(٤) اللسان ، مادة: "نعم" ٦٢١/٨.

الحسنات والنعم، فهو مقام ذم وتوبيخ للمخاطب، وإظهار مدي جحودهم وإنكارهم لمآثره.

لذا آثر التنكير لإفادة التكثير، ويدل ذلك على ثقته بنفسه. فقد ركّز الحجاج علي أهمية ألفاظه وإيحائها، ولكثره نعمه وإحسانه عليهم فهو لا يحتاج إلى تعديدها، فهي واضحة للعيان، والتنكير يدخل في معنى التكثير للتفخيم والتعظيم أيضًا.

وجاء بالتنكير هنا حتى نستشفّ الدلالة والتركيز الواسع على كثرة متاعب الخصومة ومعاطبها على الرغم من كثرة تلك النعم والإحسان ولم يكن من الممكن تصوير هذه الحسنات والنعم الكثيرة الفروع إلا بالتنكير الواقع فعلا. أي نعم كثيرة لو انتبهت إليها ولكنهم لا يدركون ذلك، يظهر ذلك من متابعة ماضيهم مع الحجاج والتدبر في أحوالهم، ومن ثم آثر تنكير "**نعمة وحسنة**" مما أفضى على العطاء إشراقة دلالية واسعة.

ثم سرعان ما ينتقل من الأسلوب الخبري الكنائي المنفي نفيًا صريحًا إلى الأسلوب الإنشائي الطلبي الكنائي أيضًا، والمعبر عنه بالاستفهام الذي خرج من معناه الحقيقي وأريد به النفي، ولكنه نفي غير صريح، وذلك لتمكنه من التنقل بين الأساليب المختلفة بفهم ووعي، ومن ثم قال: " **هَلِ اسْتَخَفَّكُمْ نَاكِثٌ أَوِ اسْتَغْوَاكُمْ غَاوٍ، أَوِ اسْتَنْصَرَكُمْ ظَالِمٌ، أَوِ اسْتَعْضَدَكُمْ خَالِعٌ** ". فجاء بحرف "**هَل**" حينما قال: " **هَلِ اسْتَخَفَّكُمْ نَاكِثٌ** " والتي تفيد التصديق لأنه يريد أن ينفى عنهم كل فعل جاءوا به لأنه ساعد على إشعال الفتنة بينهم.

كما آثر لفظ " **اسْتَخَفَّكُمْ** " واستخفَّ الشَّخصَ أَخَفَّه أي: حمله على الخِفّة والطَّيش حيث إنهم حاملون الهوى، باستهانتهم له.

وعندما كان الحجاج لا يقصد المعنى الحقيقي من جملته السابقة، وإنما يقصد معنى ملازما لها، جاء بالكناية عن موصوف حينما أعقب لفظ "**اسْتَخَفَّكُمْ** " بـ " **نَاكِثٌ**" أي ناكث الْعَهْدَ أَوِ الْيَمِينَ أي البيعة، بأن نقضَها ونبذَها، حيث أراد به عبد الرحمن ابن الاشعث. فهو يريد إقرار أهل العراق باسمه ليعاقبه على فعلته.

ثم يستمر في أسلوبه الإنشائي الطلبي فيقول: "**أَوِ اسْتَغْوَاكُمْ غَاوٍ**"، حيث عطف بـ " **أو** " التي تفيد التخيير أو التقسيم حسب السياق على الاستفهام السابق لبيان تعداد صفات المستفهم عنه.

و" **غَوَى**" أي: حاد عن الحَقّ ومال إلى هواه فأَمْعَنَ فِي الضَّلاَل[١]، " **غَاوٍ**": أي من أَضَللكم بأن أَغْواكم، وكان نتيجة ذلك أنكم غويتم، لذا جاء بجناس الاشتقاق[٢] بين لفظ " **اسْتَغْوَاكُمْ** " ولفظ " **غَاوٍ** " حيث إنهما مشتقان من مادة لغوية واحدة، قيمتها الفنية في جلائها المعنى في أتم صورة وأجمل حلة.

وما يزال الحجاج في سرد أسلوبه الكنائي المحلى بالأسلوب الإنشائي الخبري المعبر عنه بأداة الاستفهام المقدرة بعد حرف العطف "أو" فيقول: " **أَوِ اسْتَنْصَرَكُمْ ظَالِمٌ** ". والنصَر دائمًا يكون من عادل إلى مظلوم بأن يؤيده ويعينه وينجده، و ينَصرَهُ عَلَى أَعْدَائِهِ أَوْ مِنْ أَعْدَائِهِ بأن أَيَّدَهُ، وأَعَانَهُ عَلَيْهِمْ وَنَجَّاهُمْ مِنْهُ.

ومن ثم عندما أراد الحجاج أن يبين صفات ابن الاشعث بأنه ظالم، ولا يمكنه نصرة أهل العراق جاء بلفظ " **ظَالِمٌ** " أي الجائِرُ والطَّاغِي الذي يَظْلِمُ النَّاسَ بِلا حَقّ.

لذا آثر أسلوب الاستفهام هنا كأنه يقول: هل ينصر الظالم المظلوم؟ كيف ذلك فالانتصار من الظالم إنما يكون بأخذ الحق منه.

ومن ثم جاء بالطباق الخفي بين " **اسْتَنْصَرَكُمْ** " و" **ظَالِمٌ** " لإظهار حال كل من المتكلم والمخاطب مع بيان صفات من اتبعوه والذي من أجله نقضوا عهدهم بالحجاج، إذ ان الاستنصار يستلزم رجل عادل يحق الحق ويبطل الباطل ففيه تعلق بلزوم السببية، على حد قوله تعالى في وصفه لأصحاب المصطفي -ﷺ-: { **أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ** } [١] لتَعَلُّقَ لزومِ السببيَّةِ ؛ لأنَّ الرحمةَ وإنْ لم تكُنْ مقابِلةً للشدَّةِ، لكنَّها مُسبَّبَةٌ عن اللينِ الذي هو ضِدُّ الشدَّةِ. وهذا يثبت أن الطباق لم يكن زينة معنوية أو ترفًا تركيبيًا داخل الجملة بل كان مسلكًا بلاغيًا في تحقيق التناسب في العبارة في ضوء بنية العبارة أو النص الوارد فيها.

وبذلك يمضي السياق على نسق متناسب متجانس؛ فالمعاني المتضادة يعزز بعضها دلالة بعض وينميها ويشد أزرها، وهذا هو التناسب الذي لم يجتلبه تطّلب الطباق، بل جاء على السجية عفو الخاطر يميل إليه الطبع وتتشوق إليه النفس.

---

(١) اللسان مادة:"غوى" ٧٠٢/٦.

(٢) وهو: نوع آخر لا يشترط فيه اختلاف المعنى؛ بل يكفي أن يكون للكلمتين أصل اشتقاقي واحد يعودان إليه، مع اختلاف الحركات والسكنات. انظر تحرير التحبير ٣٠٠.

(١) سورة الفتح أية ٢٩.

وهذا يؤكد أن الطباق استُعمل في أيدي الحجاج ليكون أداةً لتعزيز المعنى، وتعزيز تلاحم العبارة وتناسبها. لذا وضحت جملة الطباق الجملة التالية بعدها في قوله:" **أَوِ اسْتَعْضَدَكُمْ خَالِعٌ** " فجاء بلفظ "**خَالِعٌ** " والذي نتج عن عمله هذا بأن كان ظالمًا لنفسه ولأهله وكان سببًا في الفتن التي اشتعلت في البلاد. وسبقها بلفظ "**اسْتَعْضَدَكُمْ** " "والعاضد" هو: الذي أعان أصحابه ونصرهم، وأسعفهم وأنجدهم [٢].

لذا آثر لفظ " **العضد**" لأنها تفيد بأنهم أصبحوا أسرة متماسكة يعضُد بعضُها بعضًا.

لذا سبق تلك الكلمة بالاستفهام المقدر المعطوف وكأنه يقول لهم: هل جعلكم هذا الخالع يا أهل العراق متماسكين يشد بعضكم أزر بعض، أم أحدث بينكم الفتنة ؟!

ولإظهار تلك الصور المتعددة آثر الحجاج الأفعال الماضية المقترنة بحرف "**السين**" ؛ لأن « معنى السين أنه كائن لا محالة، وإن تأخر إلى حين» [٣]، كما أن «السين للاستقبال، وإن تراخى الزمان، وهو وعيد كائن إنجازه لا محالة» [١].

ومن ثم فهي مفيدة لورود تلك الأفعال "**اسْتَخَفَّكُمْ، اسْتَغْوَاكُمْ، اسْتَنْصَرَكُمْ، اسْتَعْضَدَكُمْ** " لا محالة، فهي تؤكد الوعد الذي وعده ابن الأشعث لأهل العراق، ومن ثَمَّ أطاعوه. كما أنه تؤكد أيضًا وعيد الحجاج لهم، فاستخدمت هنا للوعد وهو الأكثر في استخدامها، وللوعيد أيضًا.

ومن ثم عبر المتكلم عن تلك المعاني المختلفة بأسلوب الاستفهام الذي خرج عن معناه الحقيقي وأريد به النفي ليصل إلى غرضه الأساسي وهو إظهار أسلوب القصر فقال:"**هل**" في قوله:" **هل استخلفكم ناكث؟...**" ثم قال "**إلا**" في قوله: " **إلاّ تبِعتموه، وآوَيْتُموه، ونصرتُموه، ورحبتمُوه.**" عن طريق النفي والاستثناء قصر موصوف على صفة.

كل ذلك من خلال المقابلة بين أربعة "حيث قابل بين **هَلِ اسْتَخَفَّكُمْ نَاكِثٌ أَوِ اسْتَغْوَاكُمْ غَاوٍ، أَوِ اسْتَنْصَرَكُمْ ظَالِمٌ، أَوِ اسْتَعْضَدَكُمْ خَالِعٌ،** " وبين " **إلاّ تبِعتموه وآوَيْتُموه، ونصرتُموه ورحبتمُوه.**" التي أوضحت المعنى وجملته.

---

(٢) اللسان مادة "عضد" ٦/ ٢٩٦.

(٣) تفسير الكشاف من حقائق التنزيل وعيون الأقاويل ، ووجوه التأويل ، الزمخشري٢/٩٧،ط/١٩٧٢م الحلبي.

(١) تفسير البحر المحيط لأبي حيان تحقيق: عادل أحمد – علي معوض٨/٥٢٦، دار الكتب العلمية ط/١، ١٩٩٣م.

ويجوز أن يكون أيضًا من باب اللف والنشر[٢]، واللفُّ والنشرُ من ألطفِ أنواع المحسِّنات البديعية المعنويَّة، ويُسمَّى أيضًا الطيّ والنشر، وجاء هنا اللفُّ مفصلًا.

وكان النشر مرتَّبًا على ترتيب اللّفِّ؛ والمعنى: **(اسْتَخَفَّكُمْ نَاكِثٌ)** فـ **(تبِعتموه)** و **(اسْتَغْوَاكُمْ غَاوٍ)** فـ **(آوَيْتُموه)** و **(اسْتَنْصَرَكُمْ ظَالِمٌ)** فـ **(نصرتُموه)** و **(اسْتَعْضَدَكُمْ خَالِعٌ)** فـ **(رحبتمُوه)**، فَنَشَرَ بعد لَفٍّ.

ولا يقتصر الجمال البلاغيُّ في هذه الجمل على ذلك التناسب، وإنَّما يأتي ختام الجمل على الغاية من البديعِ بضروبه المختلفة وخاصة اللفُّ والنشرُ. حيث يتبوَّأُ اللفُّ والنشرُ مكانةً واضحةً بين ضروب البديعِ.

ولابدَّ من الإشارة إلى أنَّ تطبيق مُصطلح اللفِّ والنشر يتفاوت فيه المفسِّرون؛ ولا يطَّردُ للمتوسِّعين في إيراده منهجٌ يدلُّ على حدود واضحةٍ لعبارة اللفِّ والنشر، ويلاحظ أنَّ بعض الأمثلة التي يُمثَّل له بها قد لا يتحقق فيها الإسنادُ أو التعلُّق بين الملفوف والمنشور بوضوح؛ بل يمكن أن يستغني الكلام الأوَّل عن الآخر، ألا ترى أنَّ أكثر الآياتِ التي مثَّلوا بها لهذا النوع هي قوله تعالى: ﴿ **وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴾ [١].

والنشر قائمٌ فيها مقام المفعول له؟ وهذا منسجمٌ كلَّ الانسجام مع ما مثَّل به البلاغيُّون والبديعيُّون.

فكأن الحجاج كان على ثقة بأن أهل العراق بعد أن يفيقوا مما هم عليه يرد عليه قوله الذي حاكى به اللف والنشر.

---

(٢)) وهو: ذكر متعدد على جهة التفصيل أو الإجمال، ثم ذكر ما لكل واحد من غير تعيين. الإيضاح ص ٣١٣.

(١) سورة القصص أية ٧٣.

• المبحث الثالث:
الأسرار البلاغية في النداء الثالث والرابع.

والنداء الثالث: احتوى على الأسلوب الإنشائي الطلبي، والنداء باعتباره جملة إنشائية حظي بجهود النحويين والبلاغيين معا، وقد تبنى البلاغيون التعريف الوظيفي للنداء، فكانت أقوالهم فيه متطابقة مبنى ومعنى مع أقوال النحويين.

ومن ثم جاء النداء هنا مقترنًا بالأسلوب الاستفهامي الإنكاري التوبيخي، فوافق النداء عرفِ النحاة وعلماء البلاغة العرب من حيث توجيه الدعوة إلى المخاطب وتنبيهه؛ للإصغاء وسماع ما يريده المتكلم بأحد أحرف مخصوصة.

وللنداء في البلاغة أحكام عدة، أهمها: قد ينزل القريب منزلة البعيد؛ لانحطاط منزلته، أو لغفلته وشرود ذهنه ؛ فينادى بغير الهمزة وأَي. وهذا ما أظهره الحجاج في ندائه بالأداة "يا" في النداء الثالث والرابع حيث قال:

"**يا أهلَ العراق هل شَغَبَ شَاغِبٌ أو نَعَب ناعب أَو زَفر زافِرٌ إلاّ كنتم أتباعَه وأنصارَه ؟. يا أهل العراق ألم تنهَكُمُ المواعظُ ؟ ألم تَزجرْكُمُ الوقائع ؟!**"".

ويعود الحجاج هنا إلي أسلوب النداء مرة أخرى ويردفه بالجملة الإنشائية الطلبية، والمعبر عنها بالاستفهام، وكأنه عندما أطنب في خطبته خشي أن يذهب عنه مخاطبيه أثناء حواره. ومن ثم خرج عن معنى النداء الحقيقي وأريد به إثارة انتباه المخاطب فقال: "**يا أهل العراق** " لكي يجعلهم حاضري الذهن دائمًا أمام عينيه.

وهنا يرجع الحجاج إلى أسلوب الاستفهام مرة أخرى(١)، ولكن الاستفهام هنا قرن بالنداء، الذي أردفه بالأفعال الماضية أيضًا.

ولم يقرنها بحرف" **السين**"(١)، واكتفى بصدارة الاستفهام، ثم حلاَّ جُمله بجناس الاشتقاق، الذي أضفى على الأسلوب النغم الموسيقي الذي تطرب له الأذان، وكأنه يراعي حالة المخاطب لكي لا يمل من حديثه.

(١) كقوله:" فكيف تنفعكم موعظة؟...ألستم أصحابي بالأهواز؟...هل استخفكم ناكث؟..."
(١) كقوله سابقًا:" هل استخلفكم...أو استغواكم..."

كل ذلك من خلال قصر الموصوف على الصفة الذي طريقه النفي والاستثناء، كالفقرة السابقة، وكأنه شعر أثناء حواره بأنه لم ينته بعد من ذمهم، وأن هناك مشاهد لم يكملها لينهي حديثهم معهم.

لذا قال:" **هَلْ شَغَبَ شَاغِبٌ**" و" **الشَّغَبُ**": تهييجُ الشَّرُّ وإثارة الفتن والاضطراب والشَّغَبُ: الجلبةُ والخصامُ،(٢) لذا آثر ذكر المسند "**شَغَبَ**" وجاء بالمسند إليه "**شَاغِبٌ**" ليبين نتيجة أعمال الشَغَب أي: أعمال الفوضى والمخالفات التي يقوم بها أشخاص مشاغبون يتعرّضون لحقوق الغير والمصلحة العامّة، ومن ثم أحدثوا شغَبًا أي أحدثوا فتنةً وجَلَبةً.

ولإظهار المعنى وتوضيحه أراد أن يبين نتيجة تلك الفتنة والتي أَثَارَت عَلَيْهِمُ الشَّرَّ المتمثل في القتل وفي قطع الرقاب، ومن ثم جاء بمادة "**الشغب**" التي توحي بصوت محدث الفتنة، المشاغب الثائر أثناء اضطرابه وشدة الضوضاء الناتجة من ارتفاع علو صوته، والتخاصم بين جلبة القوم.

ثم جاء بوصف آخر لبيان صوت تلك الفتنة فقال: "**أَوْ نَعَبَ نَاعِبٌ**"، و"**النعب**" هو: صوت الأحمق الصيَّاح، أو صوت الغراب (٣). والمسند إليه على وزن فاعل بلفظ "**ناعب**" أي: السَرِيعَ فِي سَيْرِهِ بصوته الأحمق(٤).

وفي قوله: " **أَوْ زَفَرَ زَافِرٌ** " والزفَر: إخراج النفس من الرئة بعد مدِّه طويلة.(١) وآثر لفظ " **زَفَرَ**" لأنها تحمل معنى التّعب والألم ففيها أَنينٌ عندما يخْرَجَ النَفَسُ مَصْحوبًا بِآهاتٍ، وهنا وصف الحجاج صوت مشعل الفتنة بأنه لا يجلب من زفره إلا الأنين.

ثم بعد تلك الصفات الثلاث والتي احتوت على التشبيه الضمني، جاء الحجاج بـ" **إلا** " الاستثنائية والتي سبقها النفي غير الصريح، والذي جاء عن طريق الاستفهام لإفادة قصر الموصوف على الصفة قصرًا إضافيًا أُريد به القلب، لأنه راعى حال المخاطب، فقلب عليه تصوره الذي كان في اعتقاده بالحجة المصحوبة بالدليل والبرهان. فقال " **إِلَّا كُنْتُمْ أَتْبَاعَهُ وَأَنْصَارَهُ** " وفيه تعدد للصفات ولكن الموصوف واحد. والمراد به " **أَهْل الْعِرَاقِ**.

(٢) المعجم الوجيز ص ٣٤٥.
(٣) محتار الصحاح ص٣٥٧.
(٤) المعجم الوجيز ص ٦٢٣.
(١) المعجم الوجيز ص ٢٨٩.

- **دلالة اسم الفاعل في نداءات الحجاج:**

اسم الفاعل من المشتقات التي وقع فيها خلاف كبير بين النحاة واللغويين في أحكامه، فقد اختلفوا في كونه اسمًا أو فعلا، كما اختلفوا في دلالته الزمانية على الماضي والحال والمستقبل، واختلفوا في دلالته على الحدوث والثبات.

حيث يقرر علماء اللغة أن الثبوت في اسم الفاعل طارئ، والأصل فيه الحدوث(٢)، ولكن اسم الفاعل يدل على الثبوت والدوام والاستمرار في الأزمنة المختلفة، إذ أضفته إضافة محضة، أي معنوية أو حقيقية، فجرى مجرى الاسم الجامد،" وقد يدل في هذه الحالة على الماضي، والقرينة تفصل بين الدلالتين... كما أنه يقع وسطًا بين الفعل والصفة المشبهة" (١)

ولكن ما الوظيفة الدلالية لصيغة اسم الفاعل في خطبة دير الجماجم، ومتى دلَّ اسم الفاعل في الخطبة على الماضي، أو على الحال أو المستقبل، أو على الحدوث أو الثبات حسب السياق التي وردت فيه خطبة دير الجماجم؟

إذا أجبنا عن تلك الأسئلة كشفنا من خلالها عن جمالية من جماليات الخطاب النثري في عصر بنى أمية، باعتبار أن اسم الفاعل صيغة بلاغية قائمة بذاتها تحمل في طياتها أبعادًا دلالية خاصة.

ومن ثم لاحظنا كثرة ورود اسم الفاعل في نداءات الحجاج لأهل العراق، فقد ذُكر في سبعة مواضع تقريبًا، وكل موضع له دلالة خاصة يفهم من السياق وقرائن الأحوال، فالناظر في الخطبة يري كيف استفاد السياق من دلالة اسم الفاعل مثل:

- قول الحجاج أثناء خطابه الأول مع أهل العراق:" اتخذتموه دليلا تتبعونه و**قائدًا**"، فقول الحجاج:" **قائدًا**" اسم فاعل، دلَّ هنا على الحال، أي كونه موجودًا في تلك الحالة بأنه قائد لأهل العراق، ومن ثم آثر الحجاج ذكر اسم الفاعل بعد قوله: " **دليلا**" ليبين أن ثبوت اتخاذ الشيطان الذي كان لهم **دليلا،** مرتبط بثبوت القيادة له فإن غاب القائد –الشيطان الذي استبطنهم – صلح

(٢) انظر شرح الكافية ٢٠٥/٢ ، وانظر شرح الأشموني ٣٥٤/٢ ، وشرح التصريح ٢/ ٧٨.

(١) النحاة والقياس ، صلاح الدين الزعبلاوي ٢٤٩/١، مجلة التراث العربي دمشق العدد ٣٢، ١٩٨٨م.

حال أهل العراق. ومن هنا كان للسياق أثر واضح في تحديد دلالة اسم الفاعل على الحال هنا، لأنه "دلَّ على الحدث والحدوث وفاعله " (٢)

- كما جاء اسم الفاعل " **خالع**" في قول الحجاج:" **استعضدكم خالع** " دالا على الاستقبال، وجاء بهذه الصيغة لتأكيده على علاقة الحجاج بهذا الذي أصبح عدوًا له بعد خلع ولايته، وهذا فيه دليل على أن فعل الخلع – أي خلع ابن الأشعث للحجاج – كان سببًا في العداوة، فأصبح ابن الأشعث عدوًا بعد أن كان صاحبًا للحجاج حينما ولاه قيادة الجيش سابقًا فكان من جنوده المخلصين، فإن كان لقاء العدو محققًا فإن لقاء ابن الأشعث محققًا لخلعة للحجاج وبالتالي خلعه لأمير المؤمنين عبد الملك بن مروان. ففي الخطبة خطاب وتوجيه يحث فيه الحجاج أهل العراق بأخذ الحيطة والحذر من ذلك الخالع وألا يكونوا مثله في المستقبل.
- وفي قوله: "**استغواكم غاوٍ**" دلّ اسم الفاعل " **غاوٍ**" على الهيئة التي ينبغي أن يكون عليها ابن الأشعث، وهي الهيئة التي لا ينبغي لأهل العراق أن يتبعوه فيها، ففيه نهي عن استجابة الغاوي لما يريده منهم، والسبب في ذلك أنهم عاهدوا الحجاج وأمير المؤمنين على الإمارة والملك، ومن ثم فهيئة الغاوي بالنسبة لهم سوف تجعلهم ينقلبون على الحجاج، فإذا كان من الاستنكار نقض العهد من شخص لآخر فما بالنا بنقد العهد لقلب نظام الملك، ومن ثم آثر الحجاج اسم الفاعل هنا لإضافة دلالة الثبوت على معنى استغواء ابن الأشعث لأهل العراق.
أو استغواء أهل العراق بعضهم لبعض.
- وفي قوله: " **هل استخفكم ناكث** " دلَّ اسم الفاعل " **ناكث**" على الاستقبال، أي سوف يستخف بكم ذلك الـ" **ناكث** " ففيه دلالة على ثبات الفعل وهو ثبات نكثه في مخالفته لأوامر الحجاج، وفيه دلالة على أن الذي ينكث عهده أو وعده سوف يلاقي حسابه، لأن المؤمن لا ينكث إذا عاهد لقوله تعالى: **{وَإِن نَّكَثُواْ أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ }**.(١) والثبوت في قول الحجاج " ناكث" أفاد المداومة في الفعل وصاحبه، فالفاعل هنا ثابت كأن النكوث أصبح مهنة منه فهو مداوم عليها لم ينقطع عنها.

---

(٢) شرح التصريح على التوضيح ، خالد بن عبد الله الأزهري ، تحقيق: محمد باسل عيون السود، ١١/٢ ، دار الكتب العلمية بيروت لبنان ط/١، ٢٠٠٠م.

(١) سورة التوبة أية ١٢.

- وفي قوله: " **أو نعب ناعب** " اشتق الحجاج اسم الفاعل" **ناعب**" من فعله " **نعب**" ثم أسنده إليه فأصبح اسم الفاعل" **ناعب**" ثابت بنعبه في هذا المكان –أي صفة ثابتة–، وأظهر ذلك الثبوت التشبيه حيث شبه الحجاج من يقود الفتنه بينه وبين رعاياه كالغراب الناعب، وإخبار الحجاج لاسم الفاعل هنا دلالة على غضبه من ذلك الناعب، فيكون بذلك قد كتب عليه بأنه " **ناعب**" بصفة دائمة مستمرة، فالغرض من اسم الفاعل هنا بيان الصفة وعدم تحولها أو تغيرها، وبلاغة اسم الفاعل في إيجازه لاحتوائه على الحدث وصاحبه، كما احتوى اللفظ أيضًا على صورة تشاؤمية مستكرهة في السمع جاء بها المتكلم ؛ لوصف صاحب صوت الفتنة بأنه يشبه نعب الغراب، فعندما يسمع الناس صوت الغرابَ ينعب تقبّضت وجوههم تشاؤمًا ومن ثم تنقبض وجوههم من مُثير الفتنة، وذلك فيه تقريع وتخويف لصورة صاحب الفتن.
- وقوله:" **استنصركم ظالم**" المقصود من اسم الفاعل " **ظالم** " أي: الظالم في حالة ظلمه للآخرين حيث إنه لا يمكنه نصر المظلوم، فاسم الفاعل " **ظالم**" ليس مجرد وصف لعموم الناس، ولكن جاء على التأكيد والاختصاص كأنه قال: لا ينصر الظالم مظلومًا. والمقصود من الظالم هنا من ثبت ظلمه، فأطلق عليه اسم ظالم، وليس نسبة للظلم، ومن ثم فاسم الفاعل هنا متجدد بتجدد حدثه.
- كما دلَّ اسم الفاعل " **شاغب**" في قوله:" **شغب شاغب** " على الثبوت والدوام وعلى الحال والاستقبال، فالمشاغب مالم يُحِدّ من شغبه، كان كاللابس له من شدة التصاقه بتلك الصفة لعدم التخلص منها، وقد أكد الحجاج على بيان صورة المشاغب ومدى اتباع أهل العراق له بقوله: " **إلا كنتم أتباعه وأنصاره**"، ومن ثم آثر اسم الفاعل لبيان المداومة والاستمرارية في الفعل وصاحبه، حيث أن ذلك الفعل توغل بينهم، ومن ثم جاء بصيغة الجمع في قوله: " **كنتم**" زيادة في تأكيد اتباعهم له في شغبه فهم مثله في الشغب.

النداء الرابع:

عاد الحجاج للمرة الرابعة بندائه على أهل العراق بقوله:" **يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ، أَلَمْ تَنْهِكُمُ الْمَوَاعِظُ ؟، أَلَمْ تَزْجُرْكُمُ الْوَقَائِعُ ؟!**" [(١)]. لينهي كلامه مع أهل العراق،

(١) البيان والتبيين ٣٠١/٢.

وألحق النداء بأسلوب الاستفهام الذي خرج من معناه الحقيقي وأريد به التعجب، ثم ختم باستعارتين أحسن بهما الختام.

فقال: "**أَلَمْ تَنْهِكُمُ الْمَوَاعِظُ** " لو تأملنا تلك الصورة الاستعارية لوجدناها مكررة، لكن بطريقة أخرى بالأسلوب الاستفهامي نفسه، عن طريق الاستفهام بالهمزة، وفيها شبه الحجاج المواعظ وهي "**التجارب والوقائع السابقة** "، بـ" **الإمام الواعظ** " الذي يقدم النصح والارشاد، ثم حذف المشبه به "**إمام واعظ**" على سبيل الاستعارة المكنية، وترك لازمة من لوازمه دلّت عليه وهي لفظ " **الْمَوَاعِظُ** " وهي خاصية يتميز بها الإمام، على سبيل الاستعارة التخيلية، حيث تخيل الحجاج أن أكبر موعظة يوعظ بها الإمام وهي القرآن الكريم وسنة حبيبنا المصطفى- ﷺ -.

ثم قال:" **ألم تَزجرْكُمُ الوقائع ؟ !**" وفيها شبه الحجاج " **الوقائع التي حدثت في يوم الزاوية ودير الجماجم**"، بـ" **الحاكم الآمر الناهي**" الذي يزجر رعيته عن اتخاذهم المسالك غير الشرعية، ثم حذف المشبه به " **الحاكم** " على سبيل الاستعارة المكنية، وترك لازمة من لوازمه دلّت عليه وهي لفظة " **الزاجر**" الذي يزجر الرعية وهي خاصية يتميز بها الحاكم، على سبيل الاستعارة التخيلية، حيث تخيل الحجاج أن الوقائع التي حدثت والدم الذي سال في يوم الزاوية ودير الجماجم، وشدة وطأته في تلك المعركة بالحاكم الذي يزجر رعيته عند الخطأ.

- **الحجاج والسجع:**

نلاحظ هنا أن الحجاج أتى بسجع مرصع [١] مطول بين فقرات عدة في خطبته فأولئك الموصوفون بهذا الوصف هم الذين كفروا بأنعم الله وكذَّبوا بآياته حيث خانوا أولياءهم، وتجرؤوا على محارمه بالفجور والطغيان والخروج على أميرهم. فكما أن الشعر يحْسُنُ بجمال قوافيه، كذلك النثر يَحْسُنُ بتماثل الحروف الأخيرة من الفواصل.

لذا سجع بين " **فجرات، ختارات، نزوات** " وبين " **خنتم، أرجفتم، نافقتم** "، وبين " **ناكث، غاو، ظالم، خالع** " وبين " **آتيتموه، ورحبتمُوه**"، وبين " **المواعظ، والوقائع** " حيث توافق أواخر فواصل الجمل – الكلمة الأخيرة في الفقرة–، فأحدث

(١) السجع: هو توافق الفاصلتينِ في فِقْرتين أو أكثر في الحرف الأخير. أو هو توافق أواخر فواصل الجمل [الكلمة الأخيرة في الفقرة]، ويكون في النثر فقط، انظر: الإيضاح ص٢٩٠.

نغمًا موسيقيًا يثير النفس وتطرب إليه الأذن حيث جاء غير متكلف، لخدمته للمعنى الذي يرده المتكلم. وهو من أجمل أنواع السجع حيث تساوت فقراته.

ومن ثم ختم الحجاج نداءه لأهل العراق حيث احتوى على ألفاظ جزلة ومعاني قوية توافق الحدث وأهله، فعبّر بسُهولة عمَّا يجول في نفوس أهل العراق، ويَجيش بما في صدره، دون أدنى كُلْفة أو تصنُّع. ولم يخرجَ عن مضمون الخُطبة، وإطارها العام طول نداءاته، كما أنه لم يستطرد في مواضيع لا صلةَ لها بصُلب الحَدَث.

المبحث الرابع
دلالة الاستفهام في نداء الحجاج لأهل العراق

إذا تناولنا علاقة الاستفهام في نداء الحجاج لأهل العراق فكرًا وأسلوبًا، فإن ذلك يعني أن لغة الحجاج هي المفتاح الأول للوقوف على فلسفته الكلية وأسرار إبداعه الفني؛ ولأجل ذلك لابد من قراءة أخرى لجملتي الخبر والإنشاء.

فالجملة الخبرية في تأويلها الذهني هي جملة ثبات وتأكيد، ورضى وقبول، ومن ثم يمكننا أن نقول بأنها بنية استقرار، أما جملة الإنشاء فهي جملة حركة وانتقال، فهي جملة حوار واختلاف، وبعبارة أخرى هي بنية توتر.

والاستفهام بما هو سؤال يقع في مركز هذه البنية وبؤرتها، لذا فهو رؤية وكشف، وسبيل للاغتناء المعرفي، ومن ثم فهو بنية مزدوجة (إرسال وتلقٍّ) في آنٍ واحد، وهو أيضًا حالة جدلية من الحوار، لذا تصفه التحليلات النقدية الحديثة للبلاغة بأنه (بنية عميقة منتجة للدلالة)[١]من حيث انتظار المتلقي لإجابة ما، وانفتاح أفق التوقع أيضًا.

ولأهمية الاستفهام بهذه الصفة فهو يتصدر تركيب الجملة، بل إنه يحيط بها، يلُفها، ويحاصرها، فأداته بداية الجملة وعلامته نهايتها، وهنا نصبح أمام معطيات جديدة للغة، وفلسفة مغايرة للدلالة، وإذا كان السؤال معرفة كاملة في جانبٍ من جوانب تراثنا العربي، فإنه في الآن نفسه عطش وبحث دائم وهُيام.

غير أن الأسئلة عند الحجاج تقبع في الجانب الآخر جانب النفي والإنكار والتقرير والتوبيخ...، حيث احتوى كل نداء من نداءاته على استفهامات متعددة.

فالنداء الأول: احتوى على استفهامين بأداتين مختلفتين " **كيف، الهمزة** " وتخلل استفهامه الأول استفهامات أخرى محذوفة الأداة معطوف بعضها على بعض. مثل: **فكيف تنفعكم تجربة ؟ أو تعظكم وقعة ؟ أو يحجركم إسلام ؟ أو ينفعكم بيان؟.** مثل: **ألستم بأصحابي بالأهواز؟.**

والنداء الثاني والثالث: اشتمل على استفهامين صراحة ذُكرا بأداة الاستفهام "**هل**" معطوف عليها عديد من الاستفهامات الأخرى. مثل: **هل استخفكم ناكث؟ أو**

(١) البلاغة العربية، قراءة أخرى، محمد عبد المطلب، ص ٢٩١، مكتبة لبنان، بيروت – ١٩٩٧م.

استغواكم غاو؟ أو استنصركم ظالم؟ أو استعضدكم خالع؟. ومثل: **هل شغب شاغب؟ أو نعب ناعب ؟ أو زفر زافر ؟.**

النداء الرابع: اشتمل على استفهامين صريحين ذكر فيهما الأداة " **الهمزة**".مثل: "**ألم تنهَكم المواعظ ؟ ألم تزجركم الوقائع؟.**

إذن، فنحو أي معانٍ توجهت أسئلة الحجاج؟ وبأي شكل من أشكال التوتر تمثلت استفهاماته؟ وعن أي معرفة بحثت تساؤلاته؟.

إذا كان الحجاج يدرك أثر الكلمة ودور الاختيار اللغوي، فإنه يدرك أيضًا أن للأسئلة طاقة كبيرة في فتح النص حواريًا ودراميًا، فضلاً عما يتركه تنوع الصياغة لها من أثر جمالي في المتلقي، وهو ما تعبّر عنه القراءة البلاغية بـ"الأغراض" أي المعاني التي يضيفها أسلوب الاستفهام إلى تركيب الجملة من حيث دلالتها.

ومن أجل إيضاح مثل هذه النقاط وغيرها، اتُّخذت الأمور التالية عناصر أساسية لفهم علاقة الاستفهام بالحجاج في خطبته دير الجماجم، وهي:

أولاً: شمولية السؤال وامتداده.

إن المتتبع لظاهرة الاستفهام في خطبة الحجاج، والناظر في أدواتها يجد أن الحجاج استغرق معظم أساليب الاستفهام، ونوّع في أدواته، بحيث استعمل أشهر أداة أو وسيلة من وسائل صياغة هذا الكون اللغوي واستثمرها في خطبته، ولا بد أن يكون في هذا الاستثمار واعيًا لدور اللغة في صياغة النص النثري، حيث لا يجوز أن ننفي عن المبدع صفة الكدّ والتعب والمعاناة في صناعة النص.

وقد عدَّ "أحمد مطلوب" في معجم المصطلحات البلاغية العربية أربعين غرضًا ومعنى للاستفهام في غير معناه الأصلي[١]، وإن دلَّ هذا على شيء فإنما يدُلّ على الثراء المعنوي لهذا الأسلوب اللغوي، والطاقة الدلالية الكبيرة، وإمكاناتها في إحداث تحولات جمالية قادرة على خلق ما يسمى بأفق التوقع لدى المتلقي، ومغادرة ظاهر البناء اللغوي إلى بواطنه وإيحاءاته وظلاله. وكلما نوّع المتكلم في أدوات الاستفهام الموظّفة في النص استطاع أن يوسع هذه الظلال ويعمّق تلك الإيحاءات.

(١)معجم المصطلحات البلاغية العربية وتطورها، المجمع العلمي العراقي، ١/١٨١-١٩٤، ط/١٩٨٣م بغداد

وكما أشرت في تحليل خطبة دير الجماجم فإن الحجاج استخدم في خطبته أدوات الاستفهام المعروفة ووظفها توظيفًا جماليًا حيث عبّر بها عن قلقه وسياسته تجاه العراق وأهلها.

وعلى الرغم من أنها تساؤلات مليئة بالحزن والأسى والحيرة وتوهجات العقل في سيرورته نحو المعرفة، – المعرفة التي لا تثبت ولا تستقر، خاصة لدى خطيب تعجُّ دواخله بالثورة والغليان–، إلا أننا نراه يوجه سهام أسئلته وتحيُّراته إلى كل نحو وصوب، وهو تأويل ذلك التعدد والثراء والتنوع في الكون اللغوي الذي شيِّد على تلك التراكمات في استخدامه لوسائل الاستفهام وأدواته.

ثانيًا: العطف الاستفهامي:

ظاهرة العطف بـ" **أو**" وهي ظاهرة أكثر ما يتم تناولها في دراسات الأسلوب لدى المبدع، وهي عند الحجاج ظاهرة لغوية عامة كان للاستفهام منها نصيب وافر.

وبالنظر إلى تجليات الاستفهام في معطوفاته المثيرة هذه يمكن الكشف عن لجوء الحجاج إلى هذا النمط اللغوي – أسلوب العطف بـ" **أو**" – لأسباب عديدة، في نظر المؤوّل، منها:

- أنّ اتساع الرؤية يؤدي إلى ضيق العبارة كما يقولون، فالحجاج يعبر بذلك عن وقوعه في دائرة لغوية سيطرت عليه من جانب، فراح يدور في محورها (ماذا فعل أهل العراق... ماذا فعل أهل العراق) وكأنَّ به يعلن عبثية الحياة في العراق ولا بد من التوبيخ والتقريع لهم بالبحث والتنقيب في استفهاماته المجازية.
- حيث أحس أن تلك الاستفهامات كانت عاجزة عن أداء كل هذا الكم من الرفض والاحتجاج من جهة العراق للحجاج. ورفض الحجاج لهم من جهة أخرى.
- ولا يخفى في سياق الخطبة عن العطف في الاستفهام أن صوت الأنا المحتجة الرافضة يغدو أضخم بهذه التراكمات الاستفهامية. ومن جهة ثانية، ثمة أثر إيقاعي واضح في تكرارية المشهد الاستفهامي ربما يعكس تمسك الحجاج بالموقف ورفض التخلي عن موقفه تجاه أهل العراق.

ومن تلك القراءة السابقة لأسلوب الاستفهام وبيان مدى علاقته بالحجاج في خطبته لاحظنا أنها تشير بموقفه الحازم والشديد تجاه أهل العراق، وفي الآن نفسه تعلن موقفًا مغايرًا لتجاه عوالم الأسئلة وعوالم الاستفهام، والتي صب الحجاج فيها ثقته بنفسه، وبيان خيبة أمل أهل العراق فيما سعوا إليه، من خلال الأحداث التي سردها الحجاج لتصوير حالة أهل العراق وموقفهم أثناء معركة دير الجماجم ويوم الزاوية، حيث واجههم من خلالها بعجزهم وهشاشتهم.

المعاني المجازية لأسلوب الاستفهام في الخطبة.

تحدثنا سابقًا عن علاقة الحجاج بن يوسف الثقفي بأسلوب الاستفهام في ندائه لأهل العراق، ونود أن ننوه هنا أننا تناولنا هذا المبحث بعد انتهاء الحجاج من ندائه لأهل العراق.

ومن الجدير بالذكر أن الاستفهام لم يأتِ به الحجاج في خطابه إلا أثناء ندائه لأهل العراق فقط، ولم يأت به في ندائه لأهل الشام، وهذا من خصائص لغة خطبته فهو يبتعد عن التقليد ويميل إلى الخلق والإبداع، وسنتناول معاني الاستفهام في خطبته على النحو الآتي وبحسب كثرة ورودها عنده:

١- **التقرير:** وقد وردت **(الهمزة)** في الخطبة بمعنى التقرير ومن ذلك قوله:"**ألستم أصحابي بالأهواز**" وقوله: " **ألم تنهكم المواعظ** " فدخول الهمزة على **(لم، وليس)** في هذين الجملتين أفاد معنى التحقيق والتقرير، وهو (حملك المخاطب على الإقرار والاعتراف بأمر قد استقر ثبوته ونفيه) [١]. وقد ذهب النحويون[٢] إلى أن**(ألم، وأليس)** تفيدان معنى الإيجاب والإثبات، وتعليل ذلك (أنهما حرفي نفي، والاستفهام ليس بواجب كالنفي، فلما دخل النفي على النفي انقلب إيجابا) [٣].

(١) مغني اللبيب ١٨/١.

(٢) ينظر حروف المعاني والصفات، أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي ، تحقيق: على توفيق الحمد ص ١٩، مؤسسة الرسالة – بيروت ١٩٨٤م. وانظر: معاني النحو د/ فاضل صالح السامرائي ٤/ ٦٠٣، جامعة بغداد ، بيت الحكمة ط/ ١٩٩١م.

(٣) ينظر البيان في غريب إعراب القرآن ،أبو البركات الانباري ، تحقيق: طه عبد الحميد طه، ٢/ ٥٩٦، ط/ ١٩٧٢م. ،والبرهان ٤٦/١، ومعاني النحو ٤/ ٦٠٣.

ومن الجدير بالذكر أن استعمال الحجاج لهذا النمط **(الهمزة+ لم)** ظاهرة واسعة في العربية ولاسيما في القرآن الكريم، وذهب الدكتور مصطفى النحاس إلى أن "**ألم، وأليس**" تفيدان التقرير والتحقيق (إذا لم "يتلهما" فعل رؤية ولا علم ولا نظر ولا هدى ولا تفكير ولا تدبر وأن لا يكون معناهما الإنكار مع التوبيخ مثل: "ألا ") [١].

والاستفهام هنا دلّ على التقرير والتحقيق لأن الحجاج يعلم أن ليس هناك عربي أو مسلم على سطح الأرض إلاَّ وهو يعلم بما جرى في موقعة دير الجماجم ويوم الزاوية لكثرة أحداثهما، حيث استمرت معاركهما ثلاث سنوات، فجاءت "**همزة**" الاستفهام لـ(حمل المخاطب على أن يقر بأمرٍ يعرفه) [٢].

الاستفهام فيهما على معنى التقرير والتحقيق، وهو هنا لفظة استفهام ومعناه إخبار[٣]، لذلك صح عند النحاة أن يعطف عليه الخبر[٤]. كقول الحجاج:"**هل استخفكم ناكث،أو استغواكم غاو**"، والحجاج أراد هنا أن يقرر شيئًا ويخبر عنه، هو أن الألم والسقم الذي أصاب الراعي هو حزن على ما فعله أهل العراق – الرعية– باتباعهم لابن الأشعث.

٢– **التعجب:** وقد ورد الاستفهام في خطبة دير الجماجم بمعنى التعجب في قوله: " **هل استنصركم ظالم، أو استعضدكم خالع** " **؟!**، وردت "**هل**" الاستفهامية هنا بمعنى التعجب ففي الموضع الأول: يتعجب الحجاج من شدة الحزن الذي يؤثر في الطبيعة حتى ينصر الظالم المظلوم، وفي الثاني: يتعجب من شدة مرض الطغاة حتى أنهم يخلعون وليهم الذي يقدم لهم الخدمة ويبذل نفسه من أجلهم على خيال بسيط زرعه فيهم ابن الاشعث ليحلق بهم في أجواء الخلاص والتحرر.

٣– **النفي:** وقد استعمل الحجّاج أداة الاستفهام "**كيف**" في قوله: " **كيف تنفعكم تجربة**"، حيث دلَّ الاستفهام في هذا الموضع على معنى النفي، والتقدير: **أن أهل العراق لم ينتفعوا بالتجارب السابقة ولن يتعظوا منها**، وهذا فيه غرور من المتكلم، وقد ابتدأ الحجاج بجملة الاستفهام لأنها المعنى الأهم لديه، فتذكيره لهم

(١) دراسات في الأدوات النحوية، د/ مصطفى النحاس ص ٩٠، ط/١، ١٩٧٩م. الربيعان ، الكويت.
(٢) مغنى اللبيب ١٨/١.
(٣) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري١٤/٣٠، ط/ ١٩٨٤م بيروت.
(٤) الكشاف ٣١١/٣.

بالمعارك السابقة، وبيان خيبة آمالهم هو الشاغل الأول للحجاج في هذه المرحلة. ويجوز أن يكون الاستفهام هنا يفيد معنى التعجب والإنكار لأنه أمر واقع.

٤- التوبيخ: وقد يجتمع التوبيخ بمعان عدة كالذم، والتجهيل بمكان المنفعة، والعتاب والتنبيه على الخطأ والتأنيب، والإنكار(١). وقد ورد هذا الاستعمال بشكل ملحوظ في نداء الحجاج لأهل العراق، من ذلك قوله: " **كيف يحجركم إسلام؟ أو ينفعكم بيان؟** "

دلَّ الاستفهام في هذين الجملتين على الإنكار التوبيخي، " الذي يقتضي أن ما بعده واقع وأن فاعله ملوم" (٢). وأفاد أيضًا معنى "التنبيه والتحذير"، و الحجاج أراد أن ينبه أهل العراق بأسلوب توبيخي على أن ليس هناك مفرًا من طاعته، حيث إن الدين الإسلامي يأمرهم بطاعة الولي. وكأنهم لا يسلمون وجعل بينهم وبين إسلامهم حجابًا.

كما دلَّ الاستفهام أيضًا هنا على "التوبيخ والتنديم" ففي الجملة الأولى: " **كيف يحجركم إسلام؟** "، حيث وبَّخ الحجاج أهل العراق؛ لأنه يحن ويئن لأجل تثبيت أركان الدولة الأموية بفتوحات كثيرة، ومنها إخماد الفتنة التي كانت في العراق وبلاد فارس ليروي ظمأه في انتشار قواعد الأمويين في مشارق الأرض ومغاربها، حيث تم على يده فتوحات كبيرة، بينما أهل العراق لا يلينون له فكان حزينًا.

وفي الجملة الثانية " **كيف ينفعكم بيان؟** " وبَّخ الحجاج أهل العراق أيضًا وسخر منهم لأنهم مازالوا في غفلة من الواقع فهو ينتظر ولاءهم له، ويحلم بوصالهم في الوقت الذي قد أظهروا فيه ولاءهم لابن الأشعث.

٥ - التبكيت: وقد جاء الاستفهام بهذا المعنى في بضعة مواضع، نحو: " **هل استغواكم غاوٍ**"، "**هل استعضدكم خالع**"، أفاد الاستفهام في هذا الموضع معنى التبكيت، فتساءل الحجاج تبكيتًا بابن الأشعث المتسلط على الشعب آنذاك، فدلَّ الاستفهام هنا على معنى التبكيت، فعلى الرغم من أن ابن الاشعث كان قائدًا في جيش الحجاج وكان الحجاج يفضّله على غيره ويميّزه، إلا أنه انقلب عليه فتساءل تبكيتًا له عن تلك السنين التي كان ولاؤه فيها للحجاج، فهو الأن غاو استغواهم.

---

(١) الكشاف ١/ ٥٢٦، ٢/ ٧٣.
(٢) الكتاب ٣٤٣/١.

٦ – **التحزن والتحسر والتوجع:** وقد ورد هذا المعنى عند الحجاج باستعمال "**الهمزة**" وهو يخاطب أصحابه الذين انقلبوا عليه في قوله:" **ألستم أصحابي بالأهواز؟**" والصاحب لا ينقلب على صاحبه إلا إذا كان عدوه في الخفاء، ومن ثم خرج الاستفهام هنا إلى معنى التحزن والتوجع، فهو يخاطب أهل العراق متسائلاً: **ألستم أنتم أصحابي عندما كنا في حادثة الأهواز؟** – حيث كانوا معارضين خارجين فأخضعهم بالأهواز–، ومن ثم يستنكر أن يكون هذا مصيره مع أصحابه بأن ينقلبوا عليه مرة أخرى بالمكر والتآمر، فالمقصود من " **أصحابي**" "**أعدائي المتمردين عليَّ** "، ومن ثم فسِّر غرض الاستفهام بالجملة اللاحقة لها عندما قال: "**حيث رمتم بالمكر**" فجعل سؤاله سؤال من لا يثبتها، تعظيما للأمر، فهو يذكَّرهم بوقائع سابقة لهم معه.

٧– **التفخيم والتهويل:** يأتي الاستفهام بمعنى التفخيم والتهويل كثيرًا في العربية والقرآن الكريم(١)، وقد ورد الاستفهام بمعنى التفخيم والتهويل بشكل ملحوظ من ذلك قول الحجاج: "**هل زفر زافر**" حيث دلَّ الاستفهام في هذا الموضع على التفخيم والتهويل إذ نجد الحجاج هنا قد جسد صوت صاحب الفتنة بشكلٍ مهول ومخيف، إذ صور إشعال صاحب الفتنة كصوت زفير النار عند إشعالها، فكيف لو كان هو من ينفخ في تلك النار، مع ما تحتويه مادة " **زفر**" من صوت زفير الهواء الناتج عن زفير النار.

ومنه أيضًا قوله: "**هل نعب ناعب**" أراد المتكلم هنا أن يرسم صورة مخيفة لمثيري الفتنة فشبه صوته بصوت الغراب في حالة نعابه، وصار يتحدث عن نعبه ويصفه بأسلوب استفهامي دلَّ على معنى التهويل والتفخيم.

٨ – **المعاني المتداخلة:**

تتسم خطبة دير الجماجم للحجاج بالغموض والإبهام وغالبًا ما كان يتقصد إليه، وقد جسد بعضا من هذا الغموض والإبهام بوساطة تشابك المعاني وتداخلها في أسلوب واحد، فيبقى المتلقي متحيرًا متفكرًا في معرفة المعنى الذي يريده الشاعر، فمن ذلك قوله: "**ألستم أصحابي بالأهواز**" **وقوله:**" **ألم تنهكم المواعظ** " **وقوله:** " **كيف تنفعكم تجربة** "، **وقوله:** " **هل شغب شاغب، ونعب ناعب**" دلَّ الاستفهام في هذه المواضع على معانٍ عديدة تتذبذب في الوضوح كالأضواء

(١) ينظر الصاحبي ١٨١، والكشاف ٤٢١/١، ١٤٩/٤، وشرح الكافية ٢٧٠/١، ٥٣/٢.

البعيدة كلما لاح لك ضوء اختفى عنك آخر، وقد قصد الحجاج ذلك ليجسد حيرته وتذبذبه.

فالجمل تدل من جهة على التوجع والتحسر وتدل أيضًا على التفجع، وكذلك تدل على التفخيم والتهويل، وتدل على الاستفهام الانكاري التوبيخي على عدم الاتعاظ بما مضى، وتدل أيضًا على إثارة الانتباه.

المعاني متشابكة متداخلة لا تستند إلى حلٍ عقلي منطقي يمكننا أن نشبهها بمسالة أسبقية البيضة أم الدجاجة.

وفي ختام هذا المبحث يمكننا القول: إن الحجاج استعمل الاستفهام بمعانٍ عديدة مما وفر له حرية أسلوبية في تجسيد معاناته وتجاربه مع أهل العراق، فضلاً عن ابتداعه أسلوبًا خاصًا به إذ كان يستعمل المعاني التي استعملها العرب في أسلوبي النداء وأسلوب الاستفهام، مما أضفى على الخطبة سحرًا وتألقًا، فغدت ألفاظه مفعمة بالحيوية والحركة والتجدد، فنراه متفردًا في أسلوبه فكان بحق رائدًا من رواد الخطابة في العصر الأموي.

• الفصل الثاني: نداء الحجاج لأهل الشام "بين البلاغة والدلالة والنقد"

- المبحث الأول: السمات البلاغية في النداء الأول.
- المبحث الثاني: السمات البلاغية في النداء الثاني.
- المبحث الثالث: دلالة النداء في خطبة دير الجماجم.
- المبحث الرابع: خطبة دير الجماجم بين البلاغة وفنون اللغة العربية.

المبحث الأول:
السمات البلاغية في النداء الأول.

ويُنهي الحجاج بن يوسف الثقفي خطابه الذي وجهه لأهل العراق بعد موقعة دير الجماجم ثُمَّ يلتفت إِلَى أَهْلِ الشَّامِ؛ حيث إنهم كانوا أكثر الناس محبة للحجاج، وأكثرهم نصرة له، وبُكاء عليه بعد مماته، وقيل أنهم كانوا يقفون على قبره فيقولون: رحم الله أبا محمد. وكان الحجاج محبًا لهم، دائم الإشادة بخصالهم، والرفع من مكانتهم، وكان كثير الاستنصار بهم، ومعظم جيشه كان منهم، وكان رفيقًا بهم[١] فَقال لهمَ:

" **يَا أَهْلَ الشَّامِ، إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ كَالظِّلِّيمِ الرَّامِحِ عَنْ فِرَاخِهِ، يَنْفِي عَنْهَا الْمَذَرَ، وَيُبَاعِدُ عَنْهَا الْحَجَرَ، وَيُكِنُّهَا مِنَ الْمَطَرِ، وَيَحْمِيهَا مِنَ الضِّبَابِ، وَيَحْرُسُهَا مِنَ الذُّبَابِ. يَا أَهْلَ الشَّامِ، أَنْتُمْ الْجُنَّةُ وَالرِّدَاءُ، وَأَنْتُمُ الْعُدة وَالْحِذَاءُ،**" [٢]

ومن ثم نلاحظ هنا التغير في أسلوب الخطاب، وهذا ما يُسمَّى في المفاهيم النقدية بالمقاربةِ الوجدانية، أو مفهوم التطور العاطفي[٣]، فحينما نتعاملُ مع النص ونستخلصُ أحداثه من الجملِ الإنشائيةِ أو الجملِ الخبرية، والمقامات السياقيَّة، من خلال تصنيفِ الجملِ الأدبيةِ حسَب سياقها ومقامها الوظيفي، تظهر لنا تلك المقاربات الوجدانية التي يتحكم فيها السياق من ناحيةٍ ومن ناحيةٍ أخرى تتحكم فيها الحالة النفسية لدى المتكلم.

وهنا نرى المقاربة الندائية لعبت دورها إذ أفادت الدلالات الصريحةِ والضمنية التي يستلزمُها السياقُ المقامي، ومن ثم فهو حوارٌ غيرُ مباشرٍ، يتحكمُ فيه المقامُ والسياقُ، والذي يتم من خلاله التحليل الناجح لأي نوع من الخطاب الذي يشكل وحدة عضوية كاملة.

- **التطور العاطفي في الخطبة:**

المشاعر هي عبارة عن شحنة تمنح الإنسان معنى لحياته وتدّله على طريقه، وتجارب الحياة تساعده على بناء طريقة تفكيره فيما بعد، والتواصل والتعاطف مع

(١) البداية والنهاية ٤/٢٠٠
(٢) البيان والتبيين ٢/٣٠١.
(٣) انظر المبحث الأول من الفصل الثالث.

الآخرين أثناء انفعالاتنا السلبية أو الإيجابية مهم جدا. وهو موضوع جميل ومفيد يمكننا من خلاله إظهار مواطن قوة وجزالة اللفظ، وسلاسته ورقته من جانب آخر.

ومن خلال الحالة النفسية وتطورها عند الحجاج لنا عدة تساؤلات تدور حول: ما هي ملامح الحجاج أثناء ندائه لأهل العراق؟ وما هي ملامحه أثناء ندائه لأهل الشام؟ وكيف تتبدل حالته المزاجية بهذه السرعة ؟.

ربما يكون من السهل علينا مراقبة وملاحظة النمو العاطفي في كِلا النداءين، مما جعلنا ندرك مفهوم التطورات والتغيرات الكبيرة عند الحجاج على الجانبين العاطفي والاجتماعي.

حيث مرت خطبة دير الجماجم بتطورٍ عاطفيٍ ملحوظ يظهر من تتبع ندائه لكل من أهل العراق وأهل الشام، حيث أعقب كل نداء بألفاظ ودلالات تعبر عمَّا يجول في خلجاته فطغى على ندائه لأهل العراق الأساليب الجافة الجزلة القوية الشديدة اللهجة، والتي تحمل في طياتها التوبيخ والتقريع والوعيد.

وظهر هذا واضحًا عندما أردف النداء بالأساليب الخبرية والتي تفيد بنية استقرار في صورها البيانية إلى بنية تقريع بقوله: " **إن الشيطان قد استبطنكم** " فنزل غير المنكر منزلة المنكر، وقوله: " **حيث رمتم بالمكر** " والذي تضمن معنى التحسر والحزن، وقوله:" **فحاشاكم نفاقًا وشقاقًا** " وهذا يدل على التوبيخ والتقريع، وقوله: " **تنهزمون سراعًا**" وهذا يدل على عدم صمودهم في المعركة لهشاشتهم، وقوله: " **يوم الزاوية وما يوم الزاوية ؟ بها كان فشلكم وتنازعكم،وتخاذلكم، وبراء الله منكم** "...إلى غير ذلك من تلك الأساليب الخبرية والتي أظهرت العاطفة السلبية لدى الحجاج تجاه أهل العراق.

أما بالنسبة للأساليب الإنشائية التي احتوى عليها نداء أهل العراق فلم تكن أفضل حالا من أختها الخبرية، إذ عبَّر بالاستفهام وأغراضه البلاغية المتنوعة عن تلك العاطفة حيث لم تخلُ من الزجر والنفي والتوبيخ والتعجب، فأظهرت هي أيضًا علاقة جافة خالية من العواطف –الرومانسية–.

كما أن الصور البيانية من تشبيه واستعارة وكناية والتي جاءت لتعبر عن عاطفة الحجاج لتقريب المشهد للمتلقي لم تكن خالية من صور مخيفة مرعبة مليئة بالصور التي تقرر شيئًا واحدًا وهو أنه لا توجد علاقة عاطفية بين أهل العراق والحجاج.

وكيف توجد هذه العلاقة، وكان بينهما معارك شائكة، إذ يريدون خلعه من الولاية، وهو يتعامل معهم بحكم أنهم متمردون على السلطة بالسوط والعصا.

ثم سرعان ما توصلنا إلى نهاية تلك الخطبة حتى يقول الجاحظ:" **ثم التفت إلى أهل الشام** "[١]، وهذه العبارة تدل على وصف حال الحجاج أثناء خطابه، وتدل أيضًا على تطور الخطاب العاطفي لأن الالتفات يكون بالتغيير في ملامح الوجه وفي ذلك يقول الجاحظ: (البيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى وهتك الحُجُب دون الضمير حتى يُفضي السامع إلى حقيقته...) [٢]، ثم يقول:(حكم المعاني خلاف حكم الألفاظ لأن المعاني مبسوطة إلى غير غاية، وممتدة إلى غير نهاية،... وجميع أصناف الدلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ، خمسة أشياء لا تنقص ولا تزيد: أولها اللفظ، ثم الإشارة، ثم العقد، ثم الخط، ثم الحال، وتسمى النصبة، والنَّصبَة هي الحال الدالة التي تقوم مقام تلك الأصناف ولا تقتصر على تلك الدلالات) [١].

إلى أن قال..(فأما الإشارة فالبيد وبالرأس وبالعين والحاجب والمنكب إذا تباعد الشخصان...والإشارة واللفظ شريكان، ونِعْمَ العونُ هي له، ونِعْمَ التُّرْجُمانُ هي عنده... فهل تعدو الإشارة أن تكون ذات صورة معروفة وحلية موصوفة على اختلاف طبقاتها ودلالتها..) [٢].

بتلك الكلمات السابقة للجاحظ أوجز لنا تطور العاطفة عند الحجاج، ففي التفاته بالرأس تجاه أهل الشام يدل ذلك على تطور في أسلوب الخطاب العاطفي؛ لأن الالتفات – سواء كان هذا الالتفات فيه قرب مكاني أم بعد مكاني وزمني –، يكون بالتغيير في ملامح الوجه أو الإشارة سواء كان بغمز أو لمز أو حركة.

ومن ثم كانت هذه العبارة – "**ثم التفت إلى أهل الشام**"– رسم لصورة هيئة الحجاج التي كان عليها، ومن ثم فهي تمهيد للتحول العاطفي في الخطاب لدي الحجاج، فهيأت المخاطب أن هناك كلامًا مغايرًا سوف يلقيه الخطيب بعد هذا الالتفات، فيذهب بالمتلقي كل مذهب، وكأنه قال ماذا بعد التفاته هذا ؟ ومن ثم قال: " **يا أهل الشام، أنا لكم كالظليم** ".

---

(١) البيان والتبيين ٢/ ٣٠١.
(٢) البيان والتبيين ١/ ٥٦.
(١) البيان والتبيين ١/ ٥٦، ٥٧.
(٢) المرجع السابق ١/٥٧.

ومن هنا قابل نداءه الأول لأهل الشام بندائه الأول لأهل العراق، فقال لأهل الشام: " **يا أهل الشام، أنا لكم كالظليم الرامح عن فراخه**"، بينما قال لأهل العراق: " **يا أهل العراق إن الشيطان قد استبطنكم**" فعندما وصف الحجاج ابن الأشعث الذي خلع ولايته قال:" **الشيطان** "، وعندما وصف الحجاج نفسه لأهل الشام قال: "**إنما أنا كالظليم الرامح**" المدافع عنهم في جميع أحوالهم. فأظهر عاطفة المودة والحب واللين وخفض جناح الذل من الرحمة، لأهل الشام. فالتطور العاطفي في الخطبة الواحدة يُظْهِر مدى قوة الحجاج في الانتقال من أسلوب لأخر مغاير لما سبقه، وقد أحسن الحجاج في ذلك.

ومن ثم بدأ حديثه مع أهل الشام بقوله: " **يَا أَهْلَ الشَّامِ، إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ كَالظَّلِيمِ الرَّامِحِ عَنْ فِرَاخِهِ** " فنداؤه هنا لأهل الشام كندائه لأهل العراق، من حيث إنه أسلوب نداء، ولكن من خلال السياق والمقام الذي أوضح الحالة التي عليها كل من المتكلم والمخاطب، ولاستقامته الدلالية والإبلاغية، كان لابد من معالجة التركيب الندائي من حيث مطابقته للمقام، ولمقتضى الحال، وما يستفاد من القرائن عند خروج الكلام عن مقتضى الظاهر،، حيث إن أداة النداء " **يا**" فيها مرونة تسمح له بتبادل الأدوار في الاستعمال تبعا لمنزلة المنادى في ذهن المنادي، من خلال المعاني التي جسدتها الجملة الإنشائية الطلبية.

بلاغة الجملة الندائية في خطاب الحجاج لأهل الشام:

النداء باعتباره وحدة في الخطابين الشفهي والكتابي له أهمية بالغة، وأهميته تكمن في كونه البنية الخطابية الأكثر دورانا على الألسنة والأقلام، لما تتمتع به هذه البنية من قدرة على التعبير عن مختلف الأغراض، والمشاعر الإنسانية.

والنداء هو الطريقة المثلى بصيغته الظاهرة والمحذوفة، وأشكاله المختلفة، وأساليبه المتنوعة للتعبير عن الغرض حين يشتمل على إشارة، وإيماءة، وحركة، وغمزة، وبسمة، ومن ثم يلجأ إليها المنبه، والداعي، والمتضجر، والشاكي والمتوعد. متفقة جميعها على معاني الدعوة، والطلب، والإقبال، والاستحضار.

لذلك وجدنا النداء هنا كان من أهم البنى الخطابية التي اعتمد عليها الحجاج في خطابه لأهل الشام إذ عبَّر بالإشارة في التفاته إليهم، ومن ثم كرر نداءه لهم "مرتين" تخللهما جملًا قليلة، لأن ذلك يعود في نظري إلى تطور الإحساس

الوجداني عند الحجاج في ربطه للبلاغة بعلوم التواصل بينه وبين المتلقي من خلال الإنشاء الطلبي الذي: يستدعي مطلوبا غير حاصل وقت الطلب ولو في اعتقاد المتكلم، أو هو: ما يتأخر وجود معناه عن وجود لفظه(١). لمراعاة مقام كل نداء على حسب حالة المنادىَ.

وآثر حرف النداء " **يا**" في جميع نداءاته والتي تدل على البعيد بعدًا حسيًا أو معنويا مع إجازته لإمكانية تبادل الأدوار بين هذه الأدوات تبعا لمنزلة المنادى في ذهن المنادي، فقد ينزل البعيد منزلة القريب أو ينزل القريب منزلة البعيد لدواع بلاغية تتحدد من خلال العلاقة التي تنشا بين المنادي والمنادى مباشرة بعد إحداث التركيب اللغوي الندائي والتصويت به ؛ لأن التركيب الندائي يتضمن معاني خفية زائدة على المعنى الأصلي ترتبط بالجوانب النفسية والشعورية والوجدانية لكل من المنادي والمنادَى، يعتمد في الكشف عنها على القرائن المقالية والمقامية، فيكون النداء حينئذ خارجًا عن معناه الأصلي إلى أغراض بلاغية أخرى تفهم من السياق، كما لاحظنا في جميع نداءاته مع أهل العراق وخروجها عن معناها الحقيقي.

ومن ثم خرج النداء هنا " **يَا أَهْلَ الشَّامِ** " من معناه الحقيقي بإثارته لحرف النداء " **الياء** " لتنزيل القريب منزلة البعيد، والمراد بالبعد هنا البعد المكاني، وليس البعد الحسي "المعنوي"، لإغراء المخاطب "**أهل الشام** " بإظهار مكانتهم عند الحجاج هذا من ناحية، ومن ناحية أخري ليجعل أهل العراق يتحسرون على حالهم، ويتذكرون ما فعلوا بالحجاج بانضمامهم لابن الأشعث.

ومن ثم نادى أهل العراق بحرف النداء " **الياء**" وكان من المفترض أن يناديهم بحرف النداء "**الهمزة**"؛ لأنه يخاطبهم في عقر دارهم فهم قريبون منه ماثلين أمام عينيه. ولكن لما فعلوه به أنزلهم منزلة البعيد لذا خاطبهم بهذا؛ للبعد النفسي– لأن المراد هنا بيان حبهم أو جفاءهم–.

بينما كان نداؤه لأهل الشام يتمثل في البعد المكاني لا النفسي، والذي فُهِمَ من دلالة السياق في التعبير مع بيان حالة المتكلم الذي حين ناداهم التفت إليهم، وهذا ما ذكر الرواة(١) " **ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَى أَهْلِ الشَّامِ فَقَالَ: يَا أَهْلَ الشَّامِ** ". والالتفات

(١) الإيضاح ص٢٠٠.
(١) البيان والتبيين ٣٠١/٢.

هنا فيه حركة حسية حيث يشتمل الالتفات على إدارة الرأسَ يمينًا أو شمالاً ويكون بتوجه الوجه إلى الموقع أو الشيء المراد والميل إليه(٢). وهذا التوجه فيه بيان معنى الاهتمام بهم، لذا عبر بأداة النداء أيضًا " **يا** " لإفادة البعد المكاني لا النفسي.

وأفاد ذلك السياق وقرائن الأحوال حيث قال بعد الالتفات:" **إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ كَالظَّلِيمِ الرَّامِحِ عَنْ فِرَاخِهِ** " وجاءت تلك الجملة مفصولة عن النداء وكأنها جواب عن سؤال سائل، ماذا قال لهم بعد أن ناداهم ؟، فأجاب:" **إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ كَالظَّلِيمِ** " لشبه كمال الاتصال.

كما آثر الحجاج أسلوب القصر مرة أخرى، ولكن بطريق " **إنما** " ونلاحظ أنه في إتيانه لأسلوب القصر عند خطابه لأهل العراق كان القصر بطريق النفي والاستثناء غير المباشر، من خلال الأسلوب الإنشائي الطلبي والمعبر عنه بالاستفهام الذي خرج من معناه الحقيقي وأريد به النفي، سواء كان قصر صفة على موصوف أو قصر موصوف على صفة، " **هَلِ اسْتَخَفَّكُمْ نَاكِثٌ أَوِ اسْتَغْوَاكُمْ غَاوٍ، أَوِ اسْتَنْصَرَكُمْ ظَالِمٌ، أَوِ اسْتَعْضَدَكُمْ خَالِعٌ، إلاّ تبِعتموه وآوَيْتُموه، ونصرتُموه، ورحبتمُوه.**" يتخلل ذلك القصر صور بيانية عن طريق الاستعارة أو الكناية أو التشبيه، يظهر الحجاج من خلالها ذمّه لأهل العراق وازدرائه بهم.

وعندما أراد الحجاج أن يأتي بأسلوب قصر هنا أثناء نداءه لأهل الشام أتى بـ "**إنما**"، ومن خلال الدلالة التعبيرية يمكننا أن نفسر لماذا آثر الحجاج تلك الأداة – إنما – خلال ندائه هذا دون غيرها من أدوات القصر ؟

- إما لأن" **إنما**" أقوي طريق للقصر مع إفادتها للتوكيد فقال: " **إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ كَالظَّلِيمِ** " فجاء بقصر الموصوف على صفة قصرًا إضافيًا محصورًا بالنسبة إلى شيء معين، فكأن لا ظليم باعتبار الزمان والمكان الذين هم فيه، أو باعتبار نوع من الحماية والأمن بالنسبة لهذه الصفة المعينة، إلا وهي من خصائص الموصوف المقصور على الصفة. وسر جماله أنه يزيد الكلام قوة وتأكيدًا مع خلوه من المؤكدات المألوفة وما فيه من مبالغة يتقبلها الذوق.

(٢) انظر اللسان مادة: "لفت" ٨/١٠٠.

- وإما لما قاله البلاغيون[١]: أن " دلالة "**إنما**" على القصر وضعية، وأنها تفيد القصر في كل صورة من صوره فتأتي للقصر الحقيقي بقسميه التحقيقي والادعائي كما تفيد القصر الإضافي بأقسامه.
- أنها متضمنة معنى "**ما**" و"**إلا**" بدليل قوة المفسرين في قوله تعالى: **{إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ}**[٢] أي: ما حرم إلا الميتة، ومن ثم كأن الحجاج يقول:" **لا ظليم لكم إلا أنا** ".
- قالت النحاة [١]" **إنما**" تكون لإثبات ما يذكر بعدها ونفي ما عداه. فهي لا تثبت ما بعدها فقط وإلا ما كان هناك فرق بين قولك: "أنا ظليم ". وقولك:" **إنما أنا لكم كالظليم** "؛ لأن الجملة بدونها تثبت أنه ظليم، ولكن " **إنما** " تزيد على هذا أنها تنفي ما سواها لصحة انفصال الضمير معها. مثل:" إنما أنا لكم ". كما تقول:" ما ظليم إلا أنا". والأصل في ذلك أن الضمير المتصل لا يؤتى به منفصلاً إلا إذا كان محصورًا فيه، ومن ثم جاء الحجاج هنا بضمير منفصل لغرض القصر وكأن ما فعل ذلك أحد غيره فقال:" **إنما أنا لكم كالظليم**".

فلما كان الغرض هو تخصيص نفسه بالدفاع وأنه يقول: ما يدافع عن أهل العراق إلا أنا ؟ فصل الضمير وأخره لتحمل عبارته هذا المعنى ولو أبقاه متصلاً وقال: أدافع عن أحسابهم أنا أو مثلي لأفاد جعل الضمير المؤخر توكيدًا وليس فاعلاً والمؤخر المقصور عليه لا يكون توكيدًا ولا معطوفًا ولا نعتًا، وحينئذ يكون المؤخر المقصور عليه هو قوله: "**الظليم**" ويفيد أنه لا يدافع عن أهل الشام أحد إلا هو، والقصر هنا أفاد الإثبات والنفي معًا ولو جاء بدون "**إنما** "ما أفاد ذلك.

- تستعمل " **إنما** " فيما هو معروف " معلوم " لا إنكار فيه ولا غرابة ومن ثم قال:" **إنما أنا لكم كالظليم** ". فمن المعروف موقف الحجاج من أهل الشام دون أهل العراق، بخلاف استعمال النفي والاستثناء الذي استعمله في خطابه لأهل العراق فيستعمل في عكس ذلك.

---

(١) انظر دلالات التراكيب دراسة بلاغية ، د/ محمد محمد أبو موسى ص ١٤٦، ط/٣، ٢٠٠٤، مكتبة وهبة.

(٢) سورة البقرة أية ١٧٣.

(١) ينظر: الصاحبي ١٨١، والكشاف ٤٢١/١، ١٤٩/٤، وشرح الكافية ٢٧٠/١، ٥٣/٢.

- في طريقة "إنما" يكون المقصور عليه مؤخرًا. كقول الحجاج:" **إنما أنا لكم كالظليم**". فالمقصور عليه "كالظليم" والمقصور " **أنا**" أي الحجاج، ولا يجوز تقديم المقصور عليه هنا لئلا يلتبس بالمقصور.

ثم يتخلل القصر تشبيه قوي يومئ فيه الحجاج إلى مدحه لأهل الشام بالمبالغة في الدفاع عنهم وحمايتهم، حيث شبه نفسه وهو يدافع عنهم من مخاطر تداهمهم، بذَكَرِ النعام الذي يحمي فراخه من كل الأخطار التي تهددها.

وقد استوفى هذا التشبيه كل أركانه من مشبه وهو الحجاج بن يوسف الثقفي " **أَنَا** " ومشبه به " **الظَّلِيمِ** "، ووجه الشبه " **الرَّامِحِ** "، والأداة " الكاف".

ويكمن جمال هذا التشبيه في حسن اختيار الحجاج للمشبه به، حيث جعل "**ذكر النعام**" أقوي حيوان بين الطيور، وهنا يطمئن الحجاج أهل الشام بخالص مودته ومحبته لهم.

لذا آثر لفظ " **الرَّامِح** " وهو "وجه الشبه" للاحتراس حتى لا يظن المتلقي أنه مدافع بلا سلاح غير جاد في حفظه للأمن، فالرَّامِحُ: ذو الرُّمْح، ورامح فلانًا رمَحه؛ طاعنه بالرُّمح [١]. أي: طَعَنَهُ بِرُمْحٍ وِسَهْمٍ، أَيْ بِعُودٍ طَوِيلٍ في رَأْسِهِ وهي حَرْبَةٌ يُطْعَنُ بِها.

واسم الفاعل من الشواهد الكثيرة التي جاء بها الحجاج في خطبته حيث استعمله في تجدد الفعل واستمراره في قوله:" **الرامح**" ؛ لأن الفعل يقتضي مزاولة وتجدد الصفة في الوقت ذاته، كما يقتضي الاسم ثبوت الصفة وحصولها من غير أن يكون هناك مزاولة، ومن ثم فقد أجاد الحجاج في اختيار ألفاظه ؛ لأن لفظ "**الرامح**" أفاد تزجية فعل ومعنى يحدث شيئًا فشيئًا، بل تثبته بصفة هو عليها؛ لأن الغرض من ذكره تصوير هيئة ذلك الظليم الرامح على فراخه.

فهو " رامح عن فراخه" على سبيل حكاية الحال، بدليل جملة القصر في قوله: "**إنما أنا لكم كالظليم الرامح عن فراخه... ويباعد عنها الحجر**"، ولا يحسن أن يقال هنا: كالظليم رمح، بالماضي، وإنما يحسن أن يقال في الحكاية: كالظليم يرمح. وخاصة عندما سبقه بالجملة الإنشائية الطلبية المتمثلة في أسلوب النداء في قوله:" **يا أهل الشام**" فقد استدعى مطلوبًا غير حاصل وقت الطلب.

---

(١) اللسان مادة " رمح" ٢٣٩/٤.

كما أن دلالة اسم الفاعل في قوله:" **الرامح** " تدل على تجدد الحدث واستمراره، أي أنه في حالة رمح بصفة مستمرة، من حيث إفادة اللفظ لمعنى السرعة الثابتة الدائمة عند الظليم الذي يدافع عن فراخه، وهنا اسم الفاعل لم يقف عند دلالته على الحال أو الاستقبال بل تجاوزه إلى إفادة تجدد الحدث باستمرار.

ومن ثم ألحق لفظ " الرامح" بـ" أل" التي أفادت العهد الذهني لدى المخاطب فهو الرامح المعهود في ذهن المتلقي، وما يحتويه من صفات، حيث يتجول المتكلم بذهن المتلقي في كل مذهب.

هذا بالإضافة إلى أن وجه الشبه " **الرامح**" مبني على لفظ مجازي وهو المدجج بالسلاح الذاتي، ويجوز أن يكون في اللفظ استعارة تصريحية حيث شبه سرعة الظليم " ذكر النعام" المنطلق إلى الدفاع عن فراخه بسرعة الرمح الرامح من قوسه اتجاه الهدف بجامع السرعة وإصابة الهدف في كل، ثم حذف المشبه وهو سرعة الظليم، واستعار لفظ المشبه به وهو سرعة الرامح للمشبه على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية.

ووجه الشبه فيه إيجاز حيث إن الظليم والرامح يوصفان بالسرعة في أصل تكوينها، وعدم تباطء كل منهما، فسرعة الرمح تتناسب مع سرعة الظليم، فماذا يحدث عندما يشعر الظليم أن هناك خطرًا على فراخه ؟ وكيف تكون سرعته ؟ وكيف يكون دفاعه عنهم ؟ وهو لم يملك السلاح المدجج، وإنما يملك أدوات الافتراس التي خلقه الله– ﷻ– عليها، وهي أشد من إصابة الرمح المدجج. ومن ثم أظهر الحجاج صورة دفاعه عن أهل الشام بصورة حسية تشخيصية لتصل إلى المتلقي في أبهى صورها.

وسياق الكلام هنا ومقامه يظهر جمال ذكر جملة: " **الرَّامِحِ عَنْ فِرَاخِهِ** " ففيها بيان لقوة الحجاج في صده للعدو، وأيضًا فيها تعريض لأهل العراق بأنه سوف ينقض عليهم إذ تمادوا في خيانتهم، وهذا فيه أيضًا إطناب جاء عن طريق التذييل غير جاري مجرى المثل.

ومن ثم ألحق لفظ " الرامح" بـ" أل" التي تفيد العهد الذهني لدى المخاطب فهو

الرامح المعهود في ذهن المتلقي، وما يحتويه من صفات، حيث يتجول المتكلم بذهن المتلقي في كل مذهب.

ولكن لماذا قال الحجاج: " الرامح **عن** فراخه " ولم يقل:" الرامح **إلى** فراخه" ؟ حرف الجر "**عن**" هنا أفاد المبالغة في القول حيث يريد الحجاج أن يصور به صورتين متقاربتين:

أحدهما: أن الظليم يدافع عن فراخه عندما يشعر بالخطر عليهم من أعدائه، وأثناء ذلك الدفاع سيكون هناك تحديدًا للزمان والمكان وانتهاء للغاية وهي انتصاره على أعدائه، فإذا كان ذلك مقصده لكان لزامًا عليه إيثار حرف الجر " **إلى** " الذي يفيد انتهاء الغاية، إي أن غايته تنتهي بحماية فراخه من أعدائه.

ثانيهما: أن الحجاج آثر حرف الجر "**عن**" لأن أشهر معانيها المجاوزة[١]، أي يجاوزونه ويبعدون عنه فيجوز أن يكون المعنى: أن فراخه يرمحون عنه، وفي هذه الحالة يكون فراخه هم الذين بعدوا عنه فهو يخاف عليهم بعاطفة الأبوة، فيرمح هو ليردهم إليه. وفي كلا الصورتين أحسن الحجاج في إعمال ذهن المخاطب للوصول إلى غرض المتكلم، وهذا من فصاحة القول.

وفصل جملة: " **ينفي عنها المدر**" عن جملة: " **كالظليم**" لكمال الاتصال حيث إنها بدل بعض من كل، ومن ثم عدَّد أنواع الحماية والدفاع بالعطف في قوله: " **وَيُبَاعِدُ عَنْهَا الْحَجَرَ، وَيُكِنُّهَا** [١] **مِنَ الْمَطَرِ، وَيَحْمِيهَا مِنَ الضِّبَابِ، وَيَحْرُسُهَا مِنَ الذُّبَابِ،**" وكأنه أراد أن يفصِّل للمتلقي الصورة المجملة فجاء بتفاصيلها حتى يؤكد معنى الحماية التي يريد الحجاج إظهارها أمام أهل العراق والشام، وهو كلام له دلالتين دلالة تظهر في مبالغته في حبه لأهل الشام، ودلالة أخر تُظهر قوته لكي يتمكن الرعب في قلوب مخالفيه.

وقوله: "**ينفي عنها المدر**" والمدر: الطِّين اللَّزِجُ المتماسك[٢]، ونفي المدر: يتمثل في نفَى الحادثَ: أي كذّبه، وأخبر أنّه لم يقع، وقد اشتملت تلك العبارة على كناية عن صفة الثبات وعدم الانهيار، حيث صورت الكناية أن بيوت أهل الشام لم يقع بناؤها، وهذا لمن ادّعى مثل هذا الحدث قبل موقعة دير الجماجم، " حيث كان أهل العراق تأتيهم الميرة من الرساتيق والأقاليم، من العلف والطعام وغيره،

---

(١) الاتقان في علوم القرآن للسيوطي ٢١٥/١.

(١) يكنها: يحفظها يجعلها في ملجأ أمين. اللسان مادة: "كَنَّ" ٧٤٦/٧.

(٢) المعجم الوجيز ص ٥٧٦.

وأما أهل الشام الذين مع الحجاج ففي ضيق من العيش، وقلة من الطعام، وقد فقدوا اللحم بالكلية فلا يجدونه." [٣]

وقول الحجاج: " **ينفي عنها المدر** " يريد بمعنى تلك الجملة الفكرة التي تعبر عنها البنى الخطابية التي تتناولها تلك الخطبة بإظهار التفاوت بين خطاب كل من أهل العراق وأهل الشام، ففي خطابه لأهل الشام تظهر صورة النداء المحبب والذي يحتوي على إغراء للمخاطب بإظهار مكانتهم عند المتكلم. فالخطبة تعبر عن فكرة رئيسة تنتظم جملها حولها بالإضافة إلى أفكار جزئية صغيرة، والمعنى هو من أهم العناصر التي يتم نقدها في الخطبة ؛ وقيمته تكمن في قوة التأثير على النفس.

مقياس الصحة والخطأ: كان لابد على الحجاج أن يلتزم بالحقيقة سواء كانت تاريخية أم لغوية أم علمية أم أدبية لأن الخطأ يفسد معناه ويجعله غير مقبول.

فهو يتحدث هنا عن دفاعه عن أهل الشام، ولكن جملة: " **ينفي عنها المدر** " غير واضحة المعنى، ولم نعلم مقصد الحجاج منها، حيث بحثنا في المعاجم عن المدر، فلم نجد له سياقًا خلاف ما ذكرناه، ولعله يريد أن يجعل المتلقي يذهب بذهنه بمذاهب شتى في معنى جمله.

أما قوله:" **وَيُبَاعِدُ عَنْهَا الْحَجَرَ** " كناية عن صفة الحماية والدفاع عنهم، حيث إن استلزام تباعد الحجر عن الطريق يؤدي أي الثبات والاطمئنان ورغد العيش، أي جنَّبهم وحاشاهم من مشقات الحياة، حيث إنه ابعد عنهم الشرّ و كلّ ما يسيء إليهم.

لذا آثر لفظ " **الْحَجَر**" لأن الحَجَر: كُسَارةُ الصخور، أو الصُّخورُ الصُّلْبَة المكوَّنة من تجمُّع الكسارة والفُتات[١] فالحجارة تمنَع النَّاسَ من دخولهم إلى مساكنهم، أو تمنعهم من قضاء حوائجهم. أو يضع على حدودها أعلامًا بالحجارة ونحوها لحيازتها لشخص ما.

لذا جاء بلفظ " **الحجر**" مفردًا معرفًا لأنه على عِلم ودراية بأعدائه. لأنه يقصد بالحجر الأعداء، على طريق الاستعارة التصريحية الأصلية حيث شبه "**الأعداء**" بـ "**الحجر**" بجامع الإيذاء في كل، ثم حذف المشبه " **الأعداء** " واستعار لفظ المشبه

(٣) البداية والنهاية ١٢٢٩/٢.

(١) المعجم الوجيز ص ١٣٥.

به وهو "**الحجر**"، وتكمن بلاغة الاستعارة هنا في تشبيه الشيء المعنوي بالشيء المحسوس لتشخيص الصورة وتقريبها لدى المتلقي.

ثم جاء بالكناية الثالثة بقوله: " **ويكنها من المطر**" كناية عن صفة اللجوء الآمن "أي: المكان الآمن" أي يحفظها ويجعلها في ملجأ أمين، فكنَّ الشيء أي ستره.

والكِنُّ: كلّ ما يُكنّ ويستتر فيه سواء أكان غارًا أو مكانًا عاليًا أو بيتًا منحوتًا[١]، وهذا كناية عن جعل بيوت أهل الشام آمنة مطمئنة في حياتها برغد عيشها.

وآثر لفظ " **يُكِنُّهَا** " لما يحمله اللفظ من الإخفاء والستر والصيانة، أي صانوا عهدهم، فحافظ عليهم وسترهم، وأخفاهم من أذي الأعداء بالدفاع عنهم في كل نازلة، وكأنه بني لهم كل ما يقي أهل الشام من اليردُّ[٢] والحرَّ والبردَ من الأبنية والغِيرَان ونحوها، لذا جاء بقوله: " **وَيَحْمِيهَا مِنَ الضِّبَابِ** " كناية عن صفة الرعاية التامة.

ومن ثم آثر لفظ " **يَحْمِيهَا** " ولفظ "**الضِّبَاب**". فحِمَايَةُ الْمُوَاطِنِينَ تكون بِوِقَايَتُهُمْ وَصِيَانَتُهُم، ولحماية الولي لرعيته جوانب عدة، كحِمَايَةُ الاقْتِصَادِ الوَطَنِيِّ بدرِّ الدراهم والدنانير لصالح الوطن، والحماية التجاريَّة، والحماية الصحية..إلخ، كل ذلك لأجل حماية الفرد والمجتمع.

وأردف الحماية بلفظ "**الضِّبَاب**" والضَّبَابُ: (في الجغرافيا): غشاء من رَذاذ الماء المتكاثف على دقائق الدخان أو الغبار في الطبقات السفلى من الغلاف الجوي تضعف معه الرؤية[٣]، يكثُر الضّبابُ في المدن السَّاحليَّة، وبه تتعطّل معظم حياة الإنسان بسبب الضّباب الكثيف.

وقولك: ظهر ضَبابُه، ظهر فيه بخارُ ماءٍ متكاثِف قُرب سطح الأرض فحجب الرؤيةَ صباحًا ومساءً:- أضبَّ الطريقُ المجاور للبحر. فدل ذلك اللفظ على وجود أذى من عدم الرؤية المباشرة وإعاقتها، لذا هو يحمي هؤلاء الناس من كل تعب ومشقة.

---

(١) اللسان مادة " كنَّ" ٧٤٦/٧.

(٢) اليردّ: أَرَدَّ: هياج الصوت أَردّ البحرُ: كثرت صوت أَمواجُه ، المعجم الوجيز ص١٢.

(٣) ذاكرة الأرض أحمد بن صالح السَّياري ص ٦٢ ، الملك فهد للنشر ٢٠٠٤م.

ثم يأتي بقوله: " **ويحرسها من الذباب**"، فيردف بعد الحماية الحراسة، فحَرَسَ الْمَكانَ يكون بحَفِظَهُ وَالسَهِرَ على حِمايَتِهِ. ومن ثم كان الحجاج دقيقًا في سرد تلك الكنايات لإفادة لازم معناها للواقع الذي يتكلم عنه الحجاج مع أهل الشام، لأن حرَسهم وحافِظ عليهم وحماهم، وهذا كله من أولى وظائف الجيش لدي شعبه والمتمثل في حِراسة الحدود ضدّ أي غزو.

لذا جاء بلفظ " **الذُّبَابِ** " تحقيرًا من شأن أعدائه، فمهما كان قدرهم فهم بالنسبة له عبارة عن ذباب، يفرون بمجرد حركته اللاإرادية، ومن ثم ذكر صيغة الجمع " **مِنَ الذُّبَابِ** " ولم يقل " **من الذبابة** " لبيان كثرة أعدائه، والأسلوب فيه مبالغة غلو مقبولة لأن فيها تخيل حسن.

كما أن في اللفظ "احتراس " حتى لا يظن أهل العراق ومن قادهم "ابن الأشعث" قوة معادلة لقوته، وهذا قمة في البلاغة حيث إنه أتى في الكلام الذي يوهم خلاف المقصود بما يرفع ذلك الوهم لدى المتلقي. كما أن فيه أسلوب ذم وتهكم يفهم من السياق وقرائن الأحوال.

ومن هنا نري الحجاج آثر ذكر كنايات متعددة من خلال تشبيهه بالظليم، وكأنه يصور كيفية دفاع الظليم عن فراخه بكنايات من واقع الحياة، توافق دفاع الظليم، كما توافق دفاع الحجاج عن أهل الشام حكاية عن ذَكر النعام، وهذا قمة في الإبداع أدى إلى سلاسة في إظهار المعنى الذي يريده من خلال السياق وقرائن الأحوال.

والحجاج يتكلم من واقعه حيث إنه التحق بشرطة الإمارة في الشام والتي كانت تعاني من مشاكل جمة، منها سوء التنظيم، واستخفاف أفراد الشرطة بالنظام، فأخذهم بالشدة، وعاقبهم لأدنى خلل، فضبطهم، وسير أمورهم بالطاعة المطلقة لأولياء الأمر.

وفي لفظ " **الذبابة**" تورية لها معنيين: المعنى القريب يطلق على (الحشرة الضارة)، والمعنى البعيد يطلق على(العدو) وهو المعنى المقصود، وهي تورية مرشحة؛ لأن اللازم المختص بالمعنى القريب قد ذكر قبل لفظ التورية وهو لفظ: (يحرسها) وهو الذي قوى ورشح المعنى القريب، وسميت التورية مرشحة: لأنها تَقوَى بذكر ما يناسب المعنى القريب للفظ التورية ؛ ولأن القريب غير مراد فكأنه ضعيف فإذا ذكر لازمه تقوى به.

المبحث الثاني:
السمات البلاغية في النداء الثاني.

- **النداء الثاني:**

انتقل الحجاج إلى النداء الثاني لأهل الشام ليختم به خطبته فيقول: "**يا أهل الشام، أَنْتُمْ الْجُنَّةُ والرِّداءُ، وأَنْتُمُ العُدَّةُ وَالْحِذَاءُ**".

فقدمَّ المسند إليه لإفادة التخصيص وهو قصر صفة على موصوف، فعندما قصر نفسه على حمايتهم في قوله:" **إنما أنا لكم كالظليم**"، أراد هنا أن يقصر صفات أهل الشام عليه حيث هم بالنسبة له:" **أنتم الْجُنَّةُ**" **و**" **والرِّداءُ** "، و" **وأَنْتُمُ العُدَّةُ وَالْحِذَاءُ** "، فقصر صفات متعددة لموصوف واحد قصرًا إضافيًا يريد به الإفراد بالنسبة لأهل العراق، ليبين للمتلقي أنه يفرد هؤلاء بأنهم من ناصروه وشدوا على أزره.

والجُنة: الستر يستترون به. وقيل: هو الترس، أو الوقاية[١]. والجُنَّة: جمع جُنَن وأصل الجن: ستر الشيء عن الحاسة يقال: جنة الليل وأجنة وجن عليه، فجنه: ستره، وأجنه جعل له ما يجنه، كقولك: قبرته وأقبرته، وسقيته وأسقيته، وجن عليه كذا: ستر عليه، قال -ﷻ-: ﴿ **فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً**﴾[٢]. والجنان: القلب، لكونه مستورا عن الحاسة، والمجن والمجنة: الترس الذي يجن صاحبه، قال -ﷻ-:﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً ﴾ [٣].

و" **العُدَّةُ** ": استعداد وتأهُّب بأن يعِدَّهم لأمْرٍ يَحْدث، وعُدَّةُ الْجَيْشِ: فهم عَتَادُهُ وَآلاَتُهُ الْحَرْبِيَّةُ [١]. و" **الرداء**": المِلْحَفَةُ، والرِّدَاءُ: ما يُلْبَسُ فوق الثيابِ كالجُبَّة والعَبَاءة والرِّدَاءُ: الوِشاح، وهو في رداء فلان: في رعايته وحمايته [٢]. و"

(١) اللسان مادة: "جنن" ٢/٢٣١.
(٢) سورة الأنعام أية ٧٦.
(٣) سورة المجادلة أية ١٦.
(١) اللسان مادة: "عدة" ٦/ ١١٨.
(٢) المعجم الوجيز ص: ٢٦١.

الحِذاء": ما يطأُ عليه، البعيرُ من خُفِّه والفرسُ من حافره (على التَّشبيه)، **وحِذاءُ** الشيء: ما يُحاذيه « جلست بحذائه »: أي بإزائه، قبالته. (٣)

ونداء الحجاج الثاني هنا احتوى على عدة تشبيهات غرضها التوضيح والتقريب إلى الذهن، وآثر التشبيه في مفتتح الكلام وصدر المقال، ليكون برهانًا مصاحبًا لمعنى السياق، ومن ثم يفيد إيحاء المعنى إلى النفس مؤيّدًا بدليل.

والتشبيه ما هو إلا: علاقة مشاركة بين طرفين في معنى محدد بأدوات معلومة. هذه العلاقة تكون أوضح في الطرف الثاني لذلك نريد توضيحها في الطرف الأول فنعقد هذه العلاقة بينهما.

والطرفان مختلفان فالمشبه عقلي والمشبه به حسي، وهو تشبيه مؤكد، متعدد، ومن ثم جاء بتشبيهات مجملة بليغة متعددة، المشبه واحد وهم أهل الشام، والمشبه به متعدد ليتم الغرض ويشفى الصدور، وهذا ما يسمى بتشبيه الجمع.

والتشبيه كما أورده الحجاج في ندائه لأهل الشام يحمل أسلوب المبالغة المقبولة، ومن ثم فضربه يكون بمورده، لذا شبه الحجاج أهل الشام بـ" **الجُنَّة والعدة والرداء والحذاء**" ويمكننا استعراض هذا التشبيه بالتساؤلات التالية:

لماذا شبه الحجاج حال أهل الشام بحال الجُنَّة والرداء والعدة والحذاء؟ لأنهم هم من نصروه وأيدوه وحاربوا معه، فكانوا بالنسبة له الترس والوقاية.

فإن قلت: وأين الترس والوقاية في حال أهل الشام؟ وهل هو أبدًا إلا حائر خابط في ظلماء أهل العراق ؟ قلت: المراد كل ما وَقَى من سلاح وغيره من قبل أهل الشام فهو قليل من الانتفاع بالكلمة "**الجُنَّة**" الواردة في التشبيه على لسانه فهم بالنسبة له استضاءة بنور الكلمة " **الوقاية والسِّتر**" الذي فقد وجوده عند أهل العراق.

ومن ثم كانت ظلمة العقاب السرمدي على أهل العراق دائمًا من الحجاج، ومن هنا صور الحجاج أهل الشام بإلباسه لهم لباس السترة والوقاية له من المؤاخذة والحرب ضد أهل العراق، حيث منعوا أنفسهم، ومنعوا أهاليهم عن الطريق الذي

(٣) المعجم الوجيز ص:١٤٢.

اتخذه أهل العراق، فإنهم بذلك نِعْمَ ما كانوا يعملون؛ ذلك لأنهم أحبوا الحجاج، ودافعوا عنه مع تكبدهم العناء في ذلك الدفاع، حتى أنهم فقدوا الزاد.

ويجوز أن يكون الحجاج شبه أهل الشام بالسُترَة ذاتها، وهي كُلّ ما ستر أو وقي من سلاح فيكونوا بالنسبة له النور المستوقد الحامي له في معركة دير الجماجم، والذي يحوي الأمن والسلامة، ووجه الشبه الاحتواء في كل.

فيكون وجه الشبه هنا عقلي يحتاج إلى تأول، فالسترة تحتوي بالفعل لابسها، ولكن كيف يحتوي أهل الشام الحجاج ؟ هذا السؤال عن وجه الشبه في أي معنى قصد اشتراك طرفي التشبيه، أعني حال أهل الشام وحال الحجاج، وقيل السؤال عن تعيين حال المشبه: أي في حال من الأحوال الكثيرة لأهل الشام وقع التشبيه بحال الساتر الواقي.

وإن قلت: قد شبه أهل الشام في التشبيه الأول" **بالسترة والوقاية** "، فلماذا جاء بالتشبيه الثاني "**الرداء** " والثالث بـ" **العدة** "والرابع بـ" **الحذاء**" وكلها معانى تصب في إطار واحد، نشير هنا إلى قضية مهمة وهي التفريق بين الاستعارة والتشبيه.

ومن ثم هل محتوى النداء الثاني يكون من الاستعارة ؟ هذا تشبيه بليغ لا استعارة؛ لأن المستعار له مذكور وهم أهل الشام، والاستعارة إنما تطلق حيث تطوى ذكر المستعار له ويجعل الكلام بخلوه عنه صالحا لأن يراد به.

والملاحظ أن التشبيه هنا مقرون بتشبيه آخر، حيث حاولنا أن نجد شبها بين جزئيات صور–المشبه به – وأحوالها في المشبه، فوجدنا في التشبيه الثاني صورة أخرى لحال أهل الشام أنفسهم، عندما ورد التشبيه في سياق العطف بـ "**الواو**" حيث شبه حالهم بحال من لبس رداء. وتعريف " **الرداء** " للتفخيم.

وتواصل الخطبة وصف حال أهل الشام حينما يذكر المسند إليه مرة أخري بقوله: " **أنتم العدة**" لإدخال المسرة عليهم، وهذا فيه مبالغة مقبولة لأنها قرنت بتشبيه حسن، فبعد أن كانوا سترة له في حربه على أهل العراق، فهم أيضًا "**الرداء**" الذي يتزين به، ويستر به في نفس الوقت عورته، لذا جاء معرفًا بـ" **أل** " التي تفيد العهد الذهني، أي: الرداء المعهود لديكم.

ومن ثم عطفها على "**الجُنَّة** "بحرف العطف " **الواو**" لبيان الجهة الجامعة بينهما وهي السِّتر في كل، فهو يعمد إلى توضيح الصورة لدى المتلقي بجميع جوانبها، فهو تشبيه لتعديد وصف أهل الشام.

ومن الملاحظ أنه جمع تشبيهين بأداة عطف ومسند إليه واحد في قوله: " **أنتم الجُنَّة، والرداء**"، ثم جاء بعطف ثالث بحرف "**الواو**"، ويكرر المسند إليه بذكر ضمير المخاطب المنفصل في قوله:" **وأنتم العدة والحذاء**" فذكر أولًا: مشبه واحد وذكر له بمشبهين به، ثم ذكر ثانيًا: ذلك الضمير وأردفه بمشبهين أيضًا وهما: "**وأنتم العدة والحذاء**"، وذلك لأن الحجاج يثق بانتماء أهل الشام له فهو يصف جميع حالاتهم وجميع ما قدموه بالفعل في تلك المعركة من سترة ورداء.

ومن ثم فالسِّتر والحماية لا يتحقق إلا بوجود كل ما أُعِدَّ لأمْرٍ يَحْدُثُ ويكون بالاستعداد والتأهُّب، وتمثل ذلك في قوله: " **العُدة**"، والعدة اسم جمعها عدد، وعُدَّةُ أهل الشام كانت في عدة جَيْشِه أي عَتَادُهُ وَآلاَتُهُ الْحَرْبِيَّةُ، فقد تهيَّأوا له، حيث جهَّزوا له جيشًا قادرًا على قهر أهل العراق، ولا ننسى أن الحجاج يتكلم من واقعه حيث إنه التحق بشرطة الإمارة في الشام والتي كانت تعاني من مشاكل جمة، منها سوء التنظيم، واستخفاف أفراد الشرطة بالنظام، فأخذهم بالشدة، وعاقبهم لأدنى خلل، فضبطهم، وسير أمورهم بالطاعة المطلقة لأولياء الأمر. ومن ثم فهم بالنسبة له عدة بعد أن هيأهم لذلك.

و"**العدة** " يفهم منها الاستعداد أي أن أهل الشام بعدتهم هذه اسْتَعدّوا لمواجهة مثل هذه المعارك، وهو الفعل الذي فعله الحجاج عندما كان قائدًا على جيش الشام فجعلهم مجبولين على حالة الاستعداد دائمًا، أي حالة تهيُّؤ وترقُّب، ومن ثم فهم على تمام التَّهيُّؤ، وهو أمرٌ عسكريّ يُفْرَض على الجنود ليقفوا بلا حركةٍ وقفةً مُعيَّنةً.

والمراد من "**العدة** " في الحرب كل ما يمكن به الحرب والدفاع من أنواع الأسلحة، والرجال المدرّبين ومراكز التدريب، فـ" **العدة**" لفظ عام بتهيئة أهل الشام قدر استطاعتهم من القوى الحربية ما يحتاجون إليه لمواجهة الأعداء.

وفُسِّرت "**العدة** " بالسلاح، والسيف والترس، والخضاب بالسواد والرمي وذلك من باب بيان مصادقيها وعليه فـ" **العدة**" كلمة عامة تشمل تعلّم الفنون العسكرية، والأسلحة الحديثة لكل عصر، وبشكل عام كلّ أنواع القوى والقدرات المادية والمعنوية.

فالواجب على أهل الشام في هذا العصر – بنصّ الحجاج– صنع آلات الحرب. وتعلّم الفنون والصناعات التي يتوقّف عليها صنع هذه الأشياء وغيرها من قوى الحرب.

والسرّ في توجيه الخطاب لـ" **أهل الشام**" هنا في هذا النداء بعد أن كان الخطاب في النداء السابق يحتوى على وصف حال الحجاج مع أهل الشام ببيان كيفية دفاعه عنهم بقوله: " **أنا لكم كالظليم الرامح عن فراخه** " موجَّهًا إلى أهل الشام، أنّ انتصار الحجاج في معركة دير الجماجم ويوم الزاوية هو انتصار لأهل الشام ؛ بمعنى مراعاة حقوق كلّ فرد واحترام إرادتهم التي كافحوا من أجلها وهي انتصار الحجاج على أهل الفتن بالعراق.

وعليه فالمنافع التي يهدّدها عدوّهم – عدو الحجاج– هي منافع كلّ فرد من أهل الشام، وبالتالي فعلى كلّ فرد أن يقوم بالدفاع عنها. وإن كان جزء من الاستعدادات لا يقوى عليه إلا الجيش بما له من الاستطاعة القوية والإمكانيات البالغة، ولكن بعض الأمور يمكن أن تكون على عاتق الأفراد لذا قال: " **يا أهل الشام** "، ولم يقل: " **يا جيش الشام**"، فالنداء كان للجميع وبالتالي فتكليف الحماية والعدة تكليف للجميع أيضًا.

والحجاج بعد أن شبه أهل الشام بمشبهات تدل على مدى قوتهم واحتوائهم له بقوله: " **أنتم الجنة والرداء، وأنتم العدة**"، جاء بمشبه به غريب لا يتناسق في المفهوم العام الذي أورده الحجاج من تشبيهات سابقة حيث قال:

" **والحذاء**" أي: أنتم لي كالحذاء، والمعنى هنا عندما تقرأه من الوهلة الأولى تقول: هذا تشبيه ذم جاء في صورة مدح. ولكن الحذاء هنا جزء من أجزاء عدة الحرب والمقصود به: حذاء ذو رقبة: حذاء جلديّ أو مطاطيّ يغطِّي السَّاق أو جزءًا منها. يستعمله المحارب في الحرب ليحمي قدماه من حر الصيف ولهيب الرمال أو الأرضُ أو الحجارة التي حَمِيَت من شدَّةِ وَقْع الشمس، فهو يحمي نفسه بهذا الحذاء من الرمضاء.

ويجوز أن يكون في لفظ "**الحذاء**" استعارة مكنية، حيث شبه حماية أهل الشام له بحماية الحذاء لقدم المحارب أثناء المعارك التي تدار في الصحراء الرمضاء، ثم حذف المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه وهو "**الحذاء**" على سبيل الاستعارة التخييلية، حيث تخيل الحجاج حماية أهل الشام له في تلك المعارك بحماية حذاء المحارب لقدمه. وفي الاستعارة تجسيد للمعنى المعنوي بالشيء الحسي.

ووجه الشبه في جميع التشبيهات السابقة فيه إشارة إلى متعدد منتزع من أمور متعددة في المشبه به. وإن قصد مشبهًا واحدًا من كل تلك المعاني المتعددة بما

يناظره مع المشبه به. ومن هنا لاحظنا من كلام الحجاج في التشبيه المتعدد ما يلي:

١- إنه يذهب إلى ما يذهب إليه علماء البيان.

٢- إنه يراعي الكيفية المنتزعة من مجموع الكلام.

وفي النداء الثاني تعدد التشبيه:

- ففيه تشبيه الجمع، بأن يتعدّد المشبه به دون المشبه، كما في قوله:" **يا أهل الشام أنتم الجنة والعدة**".
- وفيه التشبيه المفروق: بأن يجتمع كل مشبّه مع ما شبّه به، " **يا أهل الشام أنتم الجنة والعدة**"، " **وأنتم العدة والحذاء**"

وبهذا التشبيه المتعدد أحسن الحجاج في انتهاء خطبته، وحسن الانتهاء هو قسيم لحسن الابتداء في الأهمية، فإن كان طعم الابتداء قويًا جزلا ؛ فإن الانتهاء كان مختارًا حسنًا تم قبوله وترك أثرًا حميدًا في النفوس، حيث ختم الحجاج خطبته بصور مضيئة مشرقة مؤذنة بانتهاء الكلام حتى لا يبقي للسامع تشوق إلى الزيادة أو الإتيان بأحسن منها في جمالها، وحلاوتها، وعذوبتها، ورصانتها.

والحق أن براعة المطلع شديد الارتباط بحسن الانتهاء[١]، فلا يكفي أن يُختم الكلام ختامًا حسنًا من حيث لفظه، ومعناه، ونظمه، مع موافقته للغرض الذي بني عليه الكلام، وإنما ينبغي أن يتضمن ما يُشْعِر بالانتهاء، حتى لا تظل نفس المخاطب متعلقة به فيكون ذلك عيبًا من عيوب الكلام.

<u>دلالة الصورة البيانية في ندائه لأهل الشام:</u> من الخيال الذي ضمته خطبة دير الجماجم ؛ ما يسمى بـ" **الخيال التأليفي**"، ونعنى به:" الأثر الذي تبعثه صور الحياة المختلفة في نفس الأديب وشعوره، فيقوم بتصويرها وإظهارها ونقلها إلى المتلقي ؛ ليشاركه فيها بهذا الأثر والشعور". [٢]

وهذا ما نجده حينما أراد أن يبين لنا حاله مع أهل الشام فقال:" **إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ كَالظَّلِيمِ الرَّامِحِ عَنْ فِرَاخِهِ، يَنْفِي عَنْهَا المدَرَ، وَيُبَاعِدُ عَنْهَا الْحَجَرَ، وَيُكِنُّهَا مِنَ**

(١) "إيذان السامع بانتهاء الكلام حتى لا يبقى معه للنفوس من تشوّف إلى ما يذكر بعد" ، الإتقان ١٣٧/٢.

(٢) أصول النقد الأدبي ، أحمد الشايب ص٢١٥.

الْمَطَرِ، وَيَحْمِيهَا مِنَ الضِّبَابِ، وَيَحْرُسُهَا مِنَ الذُّبَابِ، يَا أَهْلَ الشَّامِ، أَنْتُمْ الْجُنَّةُ والرِّداءُ، وأَنْتُمُ العُدَّةُ وَالْحِذَاءُ."

فهو يصف نفسه بأن حماية أهل الشام مقصورة عليه دون غيره، حيث شبه حمايته لهم بالظليم الذي يرمح على صغاره، وكان مظهر الخيال يتجلى في التصوير البياني الذي يعتمد على الصور والتشبيهات والاستعارات المختلفة اعتمادًا كبيرًا، وقد تنوعت مصادر هذه الصور البيانية وتعددت روافدها، ورغم هذا التنوع والتعدد فقد صارت جزءًا من ملكات الحجاج الخاصة وقدراته الفنية يصبغها بألوانه، ويطوعها لفنه كما شاء.

<u>دلالة الحروب وأثرها في نداء أهل الشام:</u>

كان للحروب أثرها في صور الحجاج، حيث استمد من أجواء الحروب التي خاضها أو عاصرها صورًا استوحاها من غمار الحروب، ومن ذلك وصفه لأهل الشام بأنهم بالنسبة له "**العدة والحذاء** " فهي صورة تفريعية ذهنية، جسَّد من خلالها عظم قوة جيش الشام، والذي كان يتولى قيادته قبل توليه لإمارة العراق و رغم قلة عدده، مفيدًا – في بيان هذه الدلالة –.

كما أفاد الحجاج من الإيحاء اللغوي لكلمة " حذاء" فهي تعنى: " حذاء جلديّ أو مطاطيّ يغطِّي السَّاق أو جزءًا منها. يستعمله المحارب في الحرب ليحمي قدماه من حر الصيف ولهيب الرمال، وهذا المعنى أراده الحجاج في هذا التشبيه المرفق.

وقد اعتمد الحجاج على حواسه ومشاهداته وإدراكاته في وصف هذه الصورة فأخرج لنا صورة حركية وخاصة في استخدامه للألفاظ " **العدة**" و" **الجنة**"، و" **الرداء**"، صورًا حركية وبصرية ولونية، وصوتية معًا.

ومن ثم فلنا أن نقول: هل يعقل أن رجلًا واحدًا يجمع بين هاتين العاطفتين في طرفة عين، إن لم يكن شاعرًا بالحنان والشكر والوفاء لأهل الشام، وبنقيض هذه جميعًا حيال القوم –أهل العراق– الذين أذاقوه المر؟

ولو كان الحجاج قاسيًا في خطاب أهل الشام كقسوته في خطاب أهل العراق لأمكن القول: بأنه طاغية جبار لا يفرق بين قوم وآخرين، شأن الطغاة المستبدين ولكنه حاكم حصيف مميز.

• المبحث الثالث:
• دلالة النداء في خطبة دير الجماجم

أثناء دراسة السمات البلاغية في خطبة دير الجماجم ازدادت الرغبة عليّ إلحاحًا، فشعرت بحاجة ماسة إلى أن أتناول دلالة أُسلوب النداء بالدراسة التطبيقية برؤية بلاغية، لكي نربط بين التراث العربي في العصر الأموي، وبين قراءتنا الحديثة له، وهو الأمر الذي جعلني أعايش عن قرب تلك الخطبة من كل جوانبها اللغوية، والدلالية، والنقدية ؛ لأنها كانت بمثابة أرض خِصبة تَجوَّلتُ فيها بعد أن رويتها بإظهار سماتها البلاغية، حتى أينعت وحان وقت قطافها لإظهار الدراسة الدلالية برؤية بلاغية.

والنداء أحد أدوات هذا التخاطب حيث يتكون من: مخاطِب بكسر الطاء، ومخاطَب أو بفتح الطاء، وصيغة الخطاب.

فالمبحث يحتوى على إجابات عن تساؤلات عدة نراها تؤسس لإشكالية الدراسة فيه وهي: لماذا أكثر الحجاج من أسلوب النداء وأهمل الأشكال الأخرى من الأساليب الإنشائية ؟ ما دلالة هذا الأسلوب البلاغي، وهو يتفاعل مع بنى خطابية أخرى؟ وما هي أكثر الأسماء مناداة ولماذا ؟ فالدراسة إذا حاولت الإجابة عن هذه التساؤلات التي انطلقت منها، فقد أفدنا الغرض.

النداء أسلوب من أساليب الكلام في لغة العرب، وطريق من طرق الخطاب بين المخاطِب والمخاطَب للتواصل والتقارب والتفاهم، وقد اعتمده القرآن في توصيل رسالته للعالمين، وتوضيح مقاصده التي ضمنها أحكامه وتشريعاته.

وهو أسلوب لغوي بلاغيّ في اللغة العربية يهدف منه المتكلم إلى طلب إقبال

المنادى أو جذب انتباهه عن طريق مناداته باسمه أو بصفة من صفاته، أو استدعائه لأمر أو طلب ما.

المنادى: وهو الاسم الذي يتم طلبه ومناداته، وهو اسم ظاهر يطلبه المتكلم بواسطة "أسلوب النداء"، وهو يلي أداة النداء مباشرة دائمًا، والتعريف يفيد حَمْل المُخاطب على الالتفات. عناصره: يتكون من عنصرين رئيسين هما: أداة النداء والمنادى.

- **مواضع النداء في خطبة دير الجماجم:**

(النداء) في الخطبة جاء في فاتحتها ووسطها وأخرها بـ" ستة نداءات"، منهم أربعة لأهل العراق، ونداءين لأهل الشام، والنداء هنا: إما أن يكون موجهًا من الحجاج لعموم أهل العراق والشام، وإما أن يكون موجهًا من الحجاج إلى المتمردين من أهل العراق دون أهل الشام ؛ و(النداء) من الحاكم، قد يكون نداء لرعيته، تعظيمًا لهم، وتبجيلاً، وتخصيصًا بذلك عن سواه. وقد يكون نداء توبيخ وتقريع، وحسرة وندامة.

والنداء في كل الأحوال هو عبارة عن خطاب يوجه إلى منادى عليه لِيُقْبِلَ أو لِيُنْصِتَ ويَنْتَبِهَ، لذا أردنا أن نظهر لماذا آثر الحجاج هذا الأسلوب دون غيره من الأساليب الإنشائية الطلبية الأخرى ؟.

- إن أسلوب النداء بمختلف أنواعه وصوره يعتبر في التحليل الرمزي من المركبات المصدرية، وأنه منقلب عن صورة منطقية: (أنادي + أنا + فلان). وقد أوصت الدراسة بضرورة أن تولي الدراسات البلاغية العربية الحديثة طرق المنهج الرمزي أهمية في دراسة التراكيب اللغوية والبلاغية وتحليلها، حيث اشتملت الخطبة على الدلالة الرمزية المفردة المتمثلة في قول الحجاج: "**الشيطان**"، فأظهر من خلال ندائه لأهل العراق، مدى سيطرة ذلك الشيطان عليهم.
- البلاغة نشاط عقلي إنساني مبدع ؛ لأنها تقوم على العلاقة الوثيقة بين بنية اللغة والخصائص الكامنة في العقل البشري. فالنداء له أهمية بالغة في المنظومة اللغوية العربية، وأهميته تكمن في الدور الذي يؤديه في الحياة البشرية، ووظيفته في التواصل بينهم، وإذا كان معلومًا أن التواصل لا يتم إلا استنادًا إلى تخاطب، فإن النداء أبرز أدوات التخاطب، لأنه يجسد دورة هذا التخاطب، فالأسلوب الندائي يتكون من مخاطِب بكسر الطاء، ومخاطَب بفتح الطاء، وصيغة الخطاب.
- وإعادة النداء أثناء الكلام تكرار للأهمية، يقصد به تهويل الأمر، واسترعاء للسمع وذلك اهتمامًا بما يسمعونه ؛ ولأن النداء يستدعي إقبال أذهانهم على ما سيلقى عليهم، أتى به للتنويه بشأن الكلام الوارد بعد النداء، كل تلك العبارات دالة على هدف الحجاج من أسلوب (النداء) لتوليد علاقة بين النداء وبين خطبته.

ومما سبق يتضح أن هناك علاقة وطيدة بين الحجاج وأسلوب النداء، دون غيره من الأساليب الأخرى التي احتوت عليها الخطبة. لأنه أراد أن يقبل عليه محدثه، ويعطيه فضل اهتمام، أو أنه كان يريد أن يحثه على الاستماع، إذ وظيفة النداء هي التنبيه"[١].

ومن ثم فدلالة النداء في خطبة دير الجماجم للحجاج بن يوسف الثقفي موضوع جدير بالدراسة، فمثلا: عندما نادى الحجاج على أهل العراق فقال لهم: **(يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ، هَلْ شَغَبَ شَاغِبٌ، أَوْ نَعَبَ نَاعِبٌ)** فإننا نفهم الزجر من النداء لا من دلالة قوله: **(يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ)** فحسب، بل أيضا من جواب النداء الذي تضمن استفهامًا توبيخيًا، ولو قال قائل لإنسان يعرفه في غير هذا السياق: **(يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ)**، فلربما فهم منه النصح، أو لربما فهم منه الحث على حبه لهم، إذا كان المتكلم ممن يحب أو يعشق أهل العراق.

ومن ثم فالسياق له دور مهم في توجيه دلالة أسلوب النداء على التنبيه على عظمة الأمر وعلو شأنه، وأن المخاطب مع شدة حرصه على الامتثال كأنه غافل عنه كما في قوله تعالى: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ }**. [١]

ولعل هذا يدل على ما للسياق من دور مهم في تحديد معنى النداء، فهو يحدد متى يخرج النداء من معناه الحقيقي إلى معان مجازية أخرى حسب السياق وقرائن الأحوال؟ لذلك أكد علماء اللغة على دور السياق في فهم الدلالة المرجوة [٢].

فاللغة نفسها تُمَارس في مواقف حياتية، وبين أناس في بيئات مختلفة، يحدث بينهم نوع من التفاعل اللغوي يُنتج النص أو الحديث الذي لا يمكن أن يفهم فهمًا صحيحًا وأمينًا إلا من خلال التعرف على الموقف والسياق التاريخي والاجتماعي له، ومن خلال معرفة علاقة المتكلم بالمستمع أو المنشئ بالمستقبل.

---

(١) دروس في البلاغة العربية: نحو رؤية جديدة- الأزهر الزناد ، ص١٣٢، المركز الثقافي العربي ، ط/١، ١٩٩٢م.

(١) سورة الحديد أية ٢٨.

(٢) اللغة والإبداع الأدبي، د/محمد العبد ص٢٩،٣٢. وكذلك أكد الأصوليون على قرائن الأحوال وقيود المقال في فهم دلالة الأسلوب ، انظر: الإبهاج في شرح المنهاج على بن عبد الكافي السبكى، تحقيق: جماعة من العلماء٢/ ٥- دار الكتب العلمية- بيروت- ط/١، ٢٠١٤م.

وهذا ما وجدناه في دلالة النداء عندما نادى الحجاج على أهل العراق مرات عديدة، فهو يحمل في طياته تنبيهًا أو زجرًا أو تحسرًا أو تحيّرًا أو تذكرًا للمنادَى، وعندما نادى على أهل الشام، فالنداء يحمل في طياته الحث على الحب والمودة، والنصح والإرشاد.

كما أنه من الضروري لفهم دلالة النداء في خطبة دير الجماجم ألا ننسى العلاقة النفسية بين الحجاج وأهل العراق، وبينه وبين أهل الشام أيضًا، فهذا يساعد كثيرًا على فهم وتوجيه الدلالة المتوخاة من أسلوب النداء لكل منهما.

ومن ثم فأسلوب النداء فيه استنباط لدلالات كثيرة توخّاها الحجاج بن يوسف الثقفي أثناء ندائه لأهل العراق وأهل الشام، وقد قمنا بإحصائه عموما في خطبة دير الجماجم بلفظه، فجاء على النحو التالي:

- معدل تكرار أسلوب النداء في خطبة دير الجماجم ست مرات صراحة، منهم أربعة نداءات لأهل العراق، واثنين لأهل الشام.

- للنداء أدوات معلومة لم يستعمل منها الحجاج في خطبته إلا أداة واحدة فقط ألا وهي الـ " **يا**" حيث بلغ عدد استعمالها ست مرات، وهذا الاستعمال يجري فيه الحجاج على سنن العرب في كلامهم، " إذ يمتاز هذا الحرف "**يا**" بأنه أكثر أحرف النداء استعمالا وأعمها."[١]

- استعمل الحجاج " **يا**" النداء في خطبته لنداء القريب والبعيد على حد سواء، سواء كان هذا القرب أو البعد من حيث منزلة كل من أهل الشام والعراق لدى الحجاج ؛ وذلك لأن أهل الشام أقرب إلى قلبه من أهل العراق –، أو من حيث بعد أو قرب المكان بالنسبة للحجاج ؛ لأن الحجاج كان يقطن في العراق.

وهذا ما أكده الرضي في شرح كافية ابن الحاجب، بقوله: (فـ." يا" أعمها، أي ينادى بها القريب والبعيد)[٢]، رافضا رأي الزمخشري الذي يرى أن أداة النداء الـ "يا" ينادى بها البعيد أو من هو في منزلته، وذلك حينما قال الزمخشري في كتابه

(١) النحو الوافي– عباس حسن، ٥/٤ – دار المعارف ، ط/

(٢) شرح الرضى على الكافية –تصحيح وتعليق يوسف حسن عمر ٤/ ٤٢٥، ط/ جامعة قاريونس– ١٣٩٨هـ–١٩٧٨م.

المفصل: ("يا " لنداء البعيد أو من هو في منزلته من نائم أو ساه، فإذا نودي بها من عادهم فلحرص المنادى على إقبال المدعو عليه ومفاطنته لما يدعوه له) [١].

فالزمخشري يرى أن أداة النداء الـ " **يا**" تكون للبعيد فقط أو من في منزلته ويوضح ذلك بقوله: (وقول الداعي يا رب ويا الله استقصار منه لنفسه، وهضم لها، واستبعاد عن مظان القبول، والاستماع وإظهار للرغبة في الاستجابة بالجوار "[٢].

وهنا يعلق ابن حجاب في كتابه " الكافية على قول الزمخشري فيقول: (مع كونه تعالى أقرب إلى كل شخص من حبل وريده، فلاستصغار الداعي لنفسه، واستبعاده لها عن مرتبة المدعو تعالى) [٣]، ومن ثم يقول الرضي في شرح الكافية: (وما ذكره المصنف "ابن الحاجب" أولى؛ لاستعمالها في القريب والبعيد على السواء، ودعوى المجاز في أحدهما، أو التأويل خلاف الأصل). [٤]

ومن الطريف أن هذا الرأي افترضه الزمخشري أيضا إذ قال: (فإذا نودى بها –أي بأدوات النداء التي للبعيد، ومنها يا– من عداهم – الضمير يعود على من كان بعيدًا مكانا أو منزلة–، فلحرص المنادى على إقبال المدعو عليه ومفاطنته لما يدعوه له). [٥]

ونداء الحجاج لأهل العراق كثيرًا ما صحبه الأسلوب الإنشائي الطلبي المعبر عنه بالاستفهام، وإن تكن مصاحبة الأسلوب الإنشائي الطلبي للنداء أكثر من الأسلوب الخبري، وقل أن يصحبه خبر كما في قوله: **(يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ، إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدِ اسْتَبْطَنَكُمْ)**، وتنوع الأسلوب بين الخبر والإنشاء بعد ندائه لأهل العراق، يجدد للمتلقي حيويته، ويستثيره ويجذبه إلى النص سواء بالاستماع إن كان نصا شفاهيا أثناء إلقائه للخطبة عليهم، أو بالقراءة إن كان نصا مكتوبا لدينا الآن، ولاسيما أن المقصد الأصلي لأسلوب النداء هو التنبيه، وخاصة أنه كان دائمًا يزجرهم ويهددهم ويوبخهم بعد ندائه.

---

(١) المفصّل في علم العربية للزمخشري ، ص ٢٦٥، ط/ ٢٠٠٩م، المكتبة العصرية صيدا – بيروت
(٢) المفصل للزمخشري ص ٢٦٥.
(٣) شرح الرضى على الكافية –تصحيح وتعليق يوسف حسن عمر ٤/ ٤٢٥
(٤) شرح الرضي على الكافية، ٤/ ٤٢٥.
(٥) المفصل للزمخشري ص ٢٦٥.

أما في ندائه لأهل الشام فلم يصحب النداء إلا الأسلوب الخبري فقط كما في قوله: **(يَا أَهْلَ الشَّامِ، إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ كَالظَّلِيمِ)،(يَا أَهْلَ الشَّامِ، أَنْتُمْ الْجُنَّةُ)**، لم يرد اصطحاب النداء للأسلوب الإنشائي الطلبي، ولم يخصّ الحجاج أحدًا من أهل الشام بالذكر، وعدم تنوع الأسلوب هنا بين الخبرية والإنشائية يستشف منه إظهار تحببه إليهم، وتوده وملاطفته إياهم، وفيه كذلك إظهار لفرحه وسروره بموقفهم اتجاهه في معاركه ضد أهل العراق، لأن الأسلوب الخبري ينبأ على الهدوء والاستقرار في الجملة.

وقد يستشف من أسلوب النداء دلالات –سوى التنبيه الذي عليه أكثر معاني النداء، تدرك من خلال السياق الوارد فيه النداء وملابساته.

المعاني المجازية لأسلوب النداء في خطبة دير الجماجم.

أولا: النصح والإرشاد:

وذلك في مقام النداء الأول، أي في إظهار من كان سببًا في تلك المعركة وبيان مدى سيطرته عليهم مثل قوله: **(يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ، إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدِ اسْتَبْطَنَكُمْ)**، وقد يستشف من النداء الأول، الرغبة في إظهار ضعفهم ووهنهم أمام ابن الأشعث، حيث خالطهم فألبس عليهم الحق بالباطل، أثناء معركة دير الجماجم ويوم الزاوية، فيظهر ضعفهم توسلا ورجاء أن يهتدوا بنصحه وإرشاده لهم بالابتعاد عن ذلك الشيطان حتى لا يفسد عليهم حالهم، وحال الدولة الأموية، وإيثار النداء بهذه الصيغة فيه إظهار شدة القرب المكاني، كيف لا ؟ وهو يخاطبهم في عقر دارهم أي على أرضهم بعد انتصاره على ابن الأشعث.

ثانيا: التمني:

وذلك إذا كان النداء في مقام يفهم منه طلب المداومة على الفعل إذا كان فعلا طيبا، وجاء هذا في موطن واحد أثناء ندائه لأهل الشام في قوله: **(يَا أَهْلَ الشَّامِ، أَنْتُمْ الْجُنَّةُ والرِّداءُ، وأَنْتُمُ العُدَّةُ وَالْحِذَاءُ.)** حيث ناداهم وقصرهم على الجنة والرداء والعدة والحذاء، وهو يحكي لهم بعد انتهاء النداء عن مكانتهم بالنسبة له، وتكرار قصره وندائه المحذوف والتقدير:**(يَا أَهْلَ الشَّامِ، أَنْتُمُ العُدَّةُ وَالْحِذَاءُ)** يدّل على أنه كان يتمنى أن ينظر أهل العراق على حاله مع أهل الشام، وقد يستشف أيضا معنى تمنيه بمداومة نصرة أهل الشام له في المستقبل لحسن معاملته معهم، فهو تمنى مع تعريض. وإذا كان كذا فهو للحث والندب، وهذا يقتضي تشريفا لأهل الشام.

ثالثا: التحبب والتودد:

وذلك في مقام نداء الأحباب أو من يرغب المتكلم إشعاره بحبه ومكانته عنده، طمعا في وصل، أو في مشاركة عواطفه وانفعالاته، أو يظهر المنادي حبه وتوده عطفا وشفقة على المنادى، أو حرصا وخوفا عليه، ومن هذا القبيل قوله:**(يَا أَهْلَ الشَّامِ، إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ كَالظَّلِيمِ الرَّامِحِ عَنْ فِرَاخِهِ)**.

– ومنه خوفا وحرصا على المنادى، كقوله: **(يَا أَهْلَ الشَّامِ، إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ كَالظَّلِيمِ.. يَنْفِي عَنْهَا المدرَ، وَيُبَاعِدُ عَنْهَا الْحَجَرَ، وَيُكِنُّهَا مِنَ الْمَطَرِ، وَيَحْمِيهَا مِنَ الضِّبَابِ، وَيَحْرُسُهَا مِنَ الذُّبَابِ)**،

– ومنه عطفا ودفعا للمنادى إلى الاستجابة لما يطلب منه قوله: **(يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ، الْكَفَرَاتِ بَعْدَ الْفَجَرَاتِ، وَالْغَدَرَاتِ بَعْدَ الْخَتَرَاتِ، وَالنَّزْوَةِ بَعْدَ النَّزَوَاتِ)**.

– ومنه طمأنة ورغبة في الثبات على ولائهم له مثل قوله: **(يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ، أَلَمْ تَنْفَعْكُمُ الْمَوَاعِظُ ؟، أَلَمْ تَزْجُرْكُمُ الْوَقَائِعُ ؟ !)**

رابعًا: الاحتقار:

ورد على لسان الحجاج احتقاره لفعل ابن الأشعث واتّباع أهل العراق له في قوله: **(يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ، هَلْ شَغَبَ شَاغِبٌ، أَوْ نَعَبَ نَاعِبٌ، أَوْ زَفَرَ زَافِرٌ)** وواضح أن السؤال دلَّ على التحدي، وهو يحمل معنى الاحتقار لمن فعل هذا الفعل، وتجلى هذا الاحتقار في نداء الحجاج لأهل العراق تحقيرًا لشأن ابن الأشعث وشأنهم؛ وكونهم تابعين له عندما خلعوا ولاية الحجاج، وأعطوا الولاية والعهد لابن الأشعث، حتى ولو كان أهل العراق لم يفعلوا جريرة، ومن يكونوا كذلك فهم أهل للاحتقار.

وقد لاحظنا تداخل هذه الأغراض، وتعددها في الشاهد الواحد، مما يدل على أنها أغراض نفسية شعورية ترتبط بخوالج النفس البشرية، ومشاعرها الكامنة فيها، وعليه فهي معان مؤهلة بطبيعتها لأن تختلف حولها الأفهام.

المبحث الرابع:

خطبة دير الجماجم بين البلاغة وفنون اللغة وفروعها

من خلال ما سبق يتبين ما للبلاغة في خطبة دير الجماجم من أهمية وأثر في التعليم اللغوي وغيره، كما أن لها مكانة متميزة بين فنون اللغة العربية وفروعها التي تمثل وحدة مترابطة لفهم معنى نص الخطبة، حيث كانت رحلة الحجاج الطويلة مع أهل العراق والشام وعلاقته العميقة بهم كانت مصدرًا مهما لإثراء تجاربه؛ فمدح وذم، وحذَّر واستنجد، وحزن وسُرَّ، وتشفَّع وتوسَّل، ووجد في ذوق عصره الفني ما يتلاءم والتعبير عن هذه الأغراض وغيرها الكثير [١] مدركًا أن الحجاج لا ينفك عن عصره وجمالياته وإلا فقد بلاغة التلقي.

وللبلاغة علاقة لا تنفصل بفنون اللغة وفروعها ؛ فهي ترتبط بفنون الأدب والنقد والتذوق الأدبي ارتباطًا وثيقًا ؛ فالبلاغة هو قوام الأدب، وعنصر تكوينه الأهم، وذلك لأنها لا تخرج عن دائرة المعنى، واللفظ، والأسلوب. والأدب لا يكون أدبًا إلا إذا كانت البلاغة سمته، ومعاييرها مطبقة فيه، ولم ينهض فن البلاغة إلا بالكشف عن مكنون الأدب شعره ونثره، والوقوف على سر جماله فكرة وأسلوبًا، ومبعث تحريكه للعواطف والمشاعر؛ مما يعد معتمد الناقد الفني إذا نقد الأدب.

والبلاغة من ناحية أخرى هي مركز النقد الأدبي ومرجعه ؛ فالنقد هو دراسة النص الأدبي دراسة تحليلية في ضوء رؤية بلاغية نقدية ؛ وذلك لتحديد وظائفه، والقيم الفنية للعمل الأدبي، ومستوى جودته. فالنقد الأدبي يحلل الآثار الأدبية (النصوص) معنى ومبنى، والعناصر المكونة لها، للانتهاء إلى إصدار حكم يتعلق بمبلغها من الإجادة ؛ وذلك في ضوء الحقائق البلاغية قديمها وحديثها، وفى ضوء الوظيفة العملية للغة، والوظيفة الانفعالية لها.

أما التذوق الأدبي فهو: "النشاط الإيجابي الذى يقوم به المتلقي استجابة للتأثر بنواحي الجمال الفني في نص ما بعد تركيز انتباهه إليه، وتفاعله معه عقلياً ووجدانياً على نحو يستطيع به تقدير النص والحكم " [١].

(١) راجع الفصل الأول من البحث " السمات البلاغية في خطبة دير الجماجم".

(١) أسس النقد عند العرب د/ أحمد أحمد بدوي ص ٨٥، دار نهضة مصر.

ولا شك أن قدرة المتلقي على تذوق النص الأدبي وفهمه وتقديره، والإحساس بالجمال، والتمييز بدقة بين مزايا الأثر الفني وعيوبه، وإصدار الحكم عليه، تعتمد – أساساً– على مقومات البلاغة والنقد الأدبي ؛ مما يجعل المتلقي يستمتع به ويقبله، أو ينفر منه ويرفضه.

ومن هنا تتضح العلاقة الوثيقة والارتباط والتداخل بين فنون الأدب والبلاغة والنقد؛ فالأديب ينتج في ضوء البلاغة وأُسسها المعينة له على صياغة أفكاره، وإبراز انفعالاته النفسية، والناقد يتناول هذا النتاج بالتحليل والتفسير وتطبيق المعايير البلاغية عليه ؛ ليضعه في مكانه الصحيح. أما البلاغة فهي بين الأديب والناقد، يحول بها الأول فيما ينشئه ويحكمها الثاني فيما يقومه، ومحصلة الفنون الثلاثة التذوق الأدبي.

وإذا ما اكتملت هذه الفنون لدى الدارسين فاءت بظلالها عليهم، ووهبتهم مجموعة من المهارات، أهمهما:

- القدرة على حسن الاختيار لما يقرأون، أو يدرسون، أو يسمعون من النصوص الأدبية.
- التمكن من اختيار اللفظة والعبارة المناسبتين مع من يتم التعامل معه ؛ وتمكين الطلاب الموهوبين من خلق أدب راق.
- تنمية الإحساس بالتذوق الجمالي، واستشراف مواطن المتعة، وتعرف مصادر الجمال في الأدب العربي ؛ مما ينجم عنه مداومة النظر في نصوصه الراقية، فيقضى الدارس وقت فراغه في الاطلاع، والبحث، والدارسة، فيفصح لسانه، ويتوقد فكره، ويسيل قلمه.

وبناء على هذا، فإن فنى البلاغة والنقد ينميان ملكة الأدب، ويعدان الدارس لتذوق روائع المنثور والمنظوم، ويهيئان له أساليب الحديث والكتابة؛ بمعنى أن يصبح الدارس فصيحًا نطقًا وكتابة، قادرًا على إيصال أفكاره، وما يدوره بوجدانه في عبارات مألوفة مستساغة، لا سوقية مبتذلة.

السمات الأسلوبية في الخطبة: أولًا: على مستوى الألفاظ:

تخيَّر الحجاج ألفاظه فكانت مبتكرة – حيث بنيت الكلمة من حركات خفيفة[١] وكانت معبرة عن المعنى المراد، وكانت في الوقت ذاته ذات صفات جمالية تحقق الإمتاع للمتلقي، إذ احتوت على مزية الحسن والجودة، فلم نلاحظ كلمات وحشية ولا متوعرة، ولا مبتذلة، ولم يعبر بها عن معنى يكره ذكره، فكانت ألفاظه جارية على العرف العربي الصحيح، غير شاذة.

وعلى الرغم من جزالتها وقوتها إلا أنها تمتاز بالحسن والقبول، فتوافر صفات الفصاحة لألفاظ الخطبة يستدعي بالضرورة إلى استحسان السمع لوقعها، مما يعني أن العلاقة بين صفات الفصاحة للألفاظ ومقياس السمع هي علاقة المقدمة والنتيجة، مما يمكن معه رصد أهم صفات فصاحة الألفاظ عن الحجاج كما سبق.

•ثانيًا: على مستوى التركيب:

كما اعتنى الحجاج باللفظ المفرد اعتنى أيضًا بالمستوى التركيبي ؛ لأن اللفظ المفرد تبقى قيمه الجمالية عديمة التأثير إذا لم توضع في تركيب يفجر هذه الطاقات الجمالية، وإن مكانة الحجاج ليحددها حسن تأليفه لألفاظه أو جودة نظمه، وقد ظهر من خلال تحليلنا لخطبة دير الجماجم القدرة التأثيرية لكلام الحجاج والذي امتاز بجودة السبك وحسن الصياغة،وكيفية ممازجتها لجاراتها والتئامها مع أخواتها.

ومن ثم لاحظنا أن الخطبة كانت تطبيقًا لنظرية " النظم " عندما أظهر الحجاج أن أساس الجمال في خطبته هو نظمها، حيث راعى الحجاج معاني النحو باعتبار تناسق دلالاته وتلاقي معانيه، وتعلق الكلام بعضه ببعض وفقًا لأحكام النحو ومعانيه، وهذا كان ظاهرًا في المبحث الثاني من الفصل الثاني والثالث في كيفية تناول أسلوبي النداء والاستفهام دراسة البينية بين النحويين والبلاغيين.

(١) الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام المنثور "د/ مصطفى جواد ، دم جميل سعيد ، ص ٣٤ ، المجمع العلمي العراقي ١٩٥٦م.

حيث أظهرنا نظمهما من خلال السياق الذي تحكم في جماليات الكلمات وفعاليتها، حيث يدخل السياق في سبك التأليف لذا رأينا نداءه لأهل العراق يختلف عن ندائه لأهل الشام.

ومن ثم احتوت الخطبة على حسن التأليف وجودة التركيب، وكلاهما زاد المعنى نباهة، مما جعل النفوس تميل إلى استماعه والإصغاء إليه، على الرغم من قوة معانيه وحدتها مع أهل العراق، ولكننا ننظر إلى النص الفني من حيث سياقه ومعناه. وكيف لا ؟ والحجاج من أهل الفصاحة والبلاغة، حيث كان معبرًا عن عصره أفضل تعبير.

ومما سبق تتضح أهمية البلاغة ومنزلتها بين فنون اللغة العربية ومهاراتها، وما تؤديه من وظائف أساسية، أهمها تمكين دراسي اللغة من القدرة على التعبير السليم والمؤثر ؛ وبالتالي تنمية الإبداع اللغوي، بالإضافة إلى كونها إحدى الوسائل المهمة في تحقيق اللغة لأهدافها، باعتبارها وسيلة لابد منها لتذوق الجمال الفني في النتاج الأدبي.

- **مفهوم الشكل والمضمون في الخطبة:**

تتكون الخطبة من عنصرين رئيسيين: الشكل الظاهري للخطبة ومضمونها. ولكل واحد من المحورين المتقدمين عوامل متعددة تجعلها إما جيدة أو رديئة.

ولا يظل شيء من شكل الخطبة ولا بنيتها السجعية ولا علاقاتها الإيقاعية ولا أسلوبها الخاص بها عندما تنفصل عمّا تحتويه من معنى. فاللغة ليست لغة ولا أصوات إلا إذا عبرت عن معنى. كذلك يعتبر المحتوى بدون الشكل استخلاصًا لشيء ليس له وجود ملموس لأننا لو عبّرنا عنه بلغة مختلفة لأصبح شيئا مختلفا.

ولا بد من أن نُدرك الخطبة ككل حتى تتم عملية إدراك المضمون. ولا تناقض رأيناه عند الحجاج في الشكل والمحتوى.. لأنه لا وجود لأي منهما بدون الآخر واستخلاص الواحد من الآخر قتل للاثنين معًا، حيث كان هدفه واضحًا من أول جملة ألقاها في خطابه، ومن ثم استطعنا تحليل خطابه من حيث نداءاته المتعددة.

وهذا الإدراك ولعدم إمكان الفصل بالشكل والمحتوى ولتبادل العلاقة بين الاثنين لَم يُعهَدْ عن الأوائل – خُلفاء أم خُطباء – أنَّهم كانوا يَعِظون الناس من خلال الفصل بين الاثنين ؛ لأنَّهم أهل فصاحة وبيان، وأنَّ البلاغة تجرِي على لسانهم

جريانَ الماء في السَّيْل، فيعبِّرون بسُهولة عمَّا يجول في نفوسهم، ويَجيش في صدورهم، ويدور ويَحدُث في واقعهم دون أدنى كُلْفة أو تصنُّع، حيث كانتْ الخطبة قائمةً على الارتجال والبديهة، وهذا ما ظهر عند الحجاج حيث كان يتمتَّع بأسلوبه البياني الرائِق مِن خلال بيانه الذي ألقاه بعد خطبة دير الجماجم.

أما الاستخدام البلاغي الأقدم الذي ساد في عصر بني أمية يتمثل في هندسة الصَّوْت؛ حيث كانت نبراتُ صوت الحجاج وَفقَ معاني الخُطبة، فيرفع من نبرة صوته عندما يُريد أن يحذِّر من عقوبة الله ومقْته في قوله: " **بها كان فشلكم** " و"**براء الله منكم**" و" **فحاشاكم نفاقًا وشقاقًا** " لما يفده حرف المد من إسماع الصوت "**بها**" و"**براء**" و "**حاشاكم، نفاقًا، شقاقًا**".

ويخفض عندَ الحاجة، فيكون إيقاعُ صوته كالرَّسم البياني؛ لأجْل أن يستوعبَ الحاضرون بيانه كما في قوله: " **اتخذتموه دليلا تتبعونه** " و " **لا يسأل المرء عن أخيه**" و"**بضرب يُزيل الهامَ عن مقليه**"و" **إذ وليتم كالإبل الشوارد عن أوطانها**"...إلخ، وأهل العراق بالطبع ليسوا على مستوى واحدٍ من الاستيعاب والفَهْم، بخلاف ما لو كانت نبرةُ صوته على وتيرةٍ واحدة، فستملُّه الأسماع، وتمجُّ خُطبته النفوس، ويكون حاله كمَن يقرأ جريدة، أو مقالاً دون أن يحرِّك شعورًا، أو يلهب حماسًا.

لا شك أن أية دراسة في هذا العالم، مهما حاول القائمون عليها استيفاء عناصر الإبداع والتميز، تظل عاجزة قاصرة وهي في حضرة جهبذ البلاغة والفصاحة، يعسوب الحكمة والمنطق، برهان العقول والحجة التي تفتأ إفحام المجادلين، بمصاديق الاستدلال، وعيون الإذعان لدى الحجاج بن يوسف الثقفي، وقد حاولت هذه الدراسة إلقاء الضوء على مساحة من مساحات الإبداع العقلي عند الحجاج متمثلة بخطبته "بعد دير الجماجم ".

وأخيرًا، فليس أدل على أهمية البلاغة ومنزلتها العظيمة، التي لا تدانيها منزلة فن آخر من فنون العربية من أن المعجزة الكبرى لدينا هي القرآن الكريم، وهو إعجاز بلاغي وبياني فوق طاقة جميع بشر مهما وصلت بلاغتهم فصاحتهم ؛ وصدق القائل سبحانه وتعالى: **{قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً }**[1].

(١) سورة الإسراء أية ٨٨.

الخاتمة

الحمد لله الذي جعل لنا من العلم نورًا نهتدي به، إذ نحن نضع بين أيديكم هذا البحث، والذي لم نهمل تبيان جواهر عناصره حيث هو مبتغانا، وإن روعة البيان وسحر الكلام ليعجزان عن التعبير عن خطبة دير الجماجم للحجاج بن يوسف الثقفي، فما أنا وممّا طوقه قلمي إلا قطرة من بحر حاولت أن أستعير بلاغة القول لأجول بفكري وعقلي متحدثة في هذا الموضوع الشائك:

خطبة دير الجماجم "للحجاج بن يوسف الثقفي "ت٩٥هـ"
بين النداء والاستفهام ومفاهيم النقد
"دراسة بلاغية نقدية"

ومن ثم توصلنا إلى النتائج التالية:

- اختلف المؤرخون القدماء والمحدثون في شخصية الحجَّاج بن يوسف الثقفي بين مدح وذم، وتأييد لسياسته ومعارضة لها، لكن الحكم عليه دون دراسة عصره المشحون بالفتن والقلاقل، ولجوء خصوم الدولة إلى السيف في التعبير عن معارضتهم لسياسته أمر محفوف بالمزالق، ويؤدي إلى نتيجة غير موضوعية بعيدة عن الأمانة والنزاهة.

- احتل الحجاج مكانة متميزة بين أعلام الإسلام، ويندر أن تقرأ كتابًا في التاريخ أو الأدب ليس فيه ذكر للحجاج، وإذا كان الجانب المظلم قد طغى على صورة الحجاج، فإننا حاولنا في بحثنا هذا إبراز الجانب المشرق في حياته والمؤثر في تاريخ المسلمين حتى تستبين شخصية الحجاج بحلوها ومرها، وخيرها وشرها من خلال إظهار السمات البلاغية في خطبة دير الجماجم.

- أن خطبة دير الجماجم جاءت استجابة لفطرة الحجاج بن يوسف الثقفي، وسليقته المحكمة، وبتحليل سماتها البلاغية أكدت أن الحجاج كان متمكنًا من الأدوات اللفظية والمعنوية، التي لا يتسنى الحصول عليها لغير أعلام اللغة في العصر الأموي، حيث ظهر بوضوح حضور السمات البلاغية في الخطبة، لكن هذا الحضور لم يتعمده الحجاج، فالبلاغة عنده لم تكن لمجرد الزخرفة والزينة، بل

من أجل مهمات معينة محددة منها: اثبات قضية ما أو نفيها، تعاضد اللفظ والمعنى لأداء الغرض المقصود لإحداث الجمال والإمتاع في الخطبة.

-أن خطبة " دير الجماجم" جمعت بين حسن الصياغة وخطر المضمون من ناحية، وفضل صاحبه وما يدعو إليه من ناحية أخرى.
-أن الجملة الندائية في تلك الخطبة وجدت تفسيرا لها في ظل المنهج البلاغي، إذ تعتبر من البنى الخطابية الأكثر تداولا على الألسنة، وهو الأمر الذي جعلها تشغل حيزًا متميزًا عند الحجاج في خطبته مما أتاح لنا دراستها من الناحية البلاغية، والأسلوبية، والدلالية.

-الجملة الندائية في خطبة دير الجماجم أدت جملة من الوظائف البلاغية في الخطاب على تفاوت كل نداء في العملية التواصلية مع أهل العراق أو أهل الشام، كما أنها تؤدي وظيفة تنبيهية استحضارية، استعدادية في كل أو معظم مواقعها، فلم تكن هي المقصودة دلاليا، وإنما المقصود ما يذكر بعدها، ومن ثم فهي علامة من علامات الاتصال بين الناس، وأنها دليل قوي على اجتماعية اللغة.

-بتتبعنا لأسلوب الاستفهام في خطبة دير الجماجم؛ لاحظنا أنه يشير بموقف الحجاج الحازم والشديد تجاه أهل العراق، وفي الآن نفسه يعلن موقفًا مغايرًا لاتجاه عوالم الأسئلة وعوالم الاستفهام، والذي صب الحجاج فيه ثقته بنفسه، وبيان خيبة أمل أهل العراق فيما سعوا إليه، من خلال الأحداث التي سردها الحجاج لتصوير حالة أهل العراق وموقفهم أثناء معركة دير الجماجم ويوم الزاوية، حيث واجههم من خلالها بعجزهم وهشاشتهم. بينما لم يتطرّق إلى أسلوب الاستفهام في ندائه لأهل الشام نهائيًا.

- لا يخفى في سياق الخطبة عن العطف في الاستفهام أن صوت الأنا المحتجة الرافضة يغدو أضخم بهذه التراكمات الاستفهامية. ومن جهة ثانية، ثمة أثر إيقاعي واضح في تكرارية المشهد الاستفهامي ربما يعكس تمسك الحجاج بالشدة والحزم، ورفض تخليه عن موقفه هذا تجاه أهل العراق.

-مفهوم الدلالة في الخطبة سواء دلالة الاستفهام أو دلالة أسلوب النفي الصريح أو دلالة الصورة البيانية أو مفهوم الرمزية كاصطلاح، كان مفهومًا نقديًا واضحًا لدي المتلقي من خلال تناول الحجاج لهم، مما ساعد على المعايشة أثناء سرد أحداث خطبة دير الجماجم، كما أن أثر المُشاهدة والتجارب الخاصة والحروب كان ظاهرًا للعيان حيث تملكت صورهم بجميع أبعادها من الحجاج في خطبته.

- بعد عرض صيغ أسماء الفاعلين الواردة في الخطبة ودلالتها تبيّن لنا:
- أن اسم الفاعل يدل على الثبات في أصله والحدوث فيه طارئ.
- لصيغة اسم الفاعل دلالات كثيرة منها: دلالته على الأزمنة المختلفة الحال والاستقبال والاستمرارية، ودلالة الثبات والحدوث، كما رأينا أيضًا دلالته على الهيئة والحال، ودلالته على تأكيد المعنى.
- اسم الفاعل في الخطبة لم يقترن بـ" أل" عندما ألحق بقرينة معنوية أو لفظية دلتا على ذلك، إلا في موضع واحد وهو لفظ " **الرامح**".

-أظهرت الدراسة التحليلية أن الدراسة الأسلوبية في الخطبة من حيث مستوى الألفاظ أو المستوى التركيبي كانت دلالة على العصر الأموي، والذي كان يزخر بفن القول وخاصة في الخطب السياسية، فكانت تلك الخطبة ترجمة تاريخية لعصر الحجاج.

- لقد اكتوى الحجاج بنار العراق وملأه الغيظ، لذا نراه في خطبته يصفهم وصف الخبير المجرّب، بل وصف عالِم النفس العريق في علم الأخلاق، وذلك عندما ظن الحجاج من شدة ما لقى من أهل العراق أن الشيطان نفسه قد استبطنهم، فأبدع في صوره البيانية من تشبيه ومجاز وكناية، ولكنه في نفس الوقت الذي خطب فيه تلك الخطبة النارية، وقبل أن يتنفس، التفت إلى أهل الشام في عطف ودعة وعرفان للجميل، فهل يعقل أن رجلاً واحدًا يجمع بين هاتين العاطفتين في طرفة عين، إن لم يكن شاعرًا بالحنان والشكر ونصرتهم على أعدائهم؟ فأبدع أيضًا في صوره البيانية ببديهية وارتجال وكأنه إلهام، فكان فارسًا في هذا الميدان، وبطل هذه الطريقة، وإمام هذا الفن في عصره، حيث أتته المعاني إرسالا، وانسالت عليه الألفاظ انسيالا.

- وافق حسن استهلال الخطبة حسن انتهائها، فلو كان الحجاج قاسيًا في خطبة أهل الشام كقسوته على أهل العراق، لأمكن القول بأنه طاغية جبار لا يفرق بين قوم وآخرين، ولكنه حاكم حصيف مميز، لا يضع السيف موضع الندى، ولا يضع الندى موضع السيف، ولكنه يكيل بالكيل الذي يستحقه.

وفي النهاية وبعد هذا الجهد المتواضع، لا أملك إلا أن أقول أنني قد عرضت رأيي وأدليت بفكري في حصن من الحصون النثرية التي تميزت بالقوة في ذلك العصر، والتي هي كنه بلاغة النثر في عصر بنى أمية.

وأخيرًا لعلي وفقت في كتابة هذا البحث، فما أنا إلا بشر قد أخطئ وقد أصيب، فإن أخطأت فحسبي شرف المحاولة، وإن أصبت فهذا كل ما أرجوه من الله -ﷻ-، وحسبي أننا بذلنا قدر استطاعتنا، ولا نغلق باب القول في الموضوع بل نعتقد جازمين أننا بعملنا هذا نفتح الباب أمام الآخرين- وما أكثرهم- ليُكملوا ما نقص فإن النقص من طبيعة البشر.

ولا يسعنا في نهاية بحثنا إلا الدعاء لأهل العراق وأهل الشام وجميع بلاد المسلمين، اللهم صل وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، اللهم اجعل لأهل الشام والعراق وجميع بقاع المسلمين فرجا ومخرجا، اللهم احقن دماءهم، واحفظ أعراضهم، وآمنهم في أوطانهم، واكشف عنهم البلاء. اللهم الطف بعبادك المسلمين في كل مكان يا رحمن يا رحيم، اللهم انصر الإسلام وأعز المسلمين، وأعلِ بفضلك رايتي الحق والدين، وأنعم علينا بالأمن والأمان يا لطيف يا منان، واحفظ مصرنا من كل سوء.

{ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}(١)

(١) سورة يونس أية ١٠.

ثبت بأهم المصادر والمراجع

١- القرآن الكريم.
٢- الإبهاج في شرح المنهاج، على بن عبد الكافي السبكى، تحقيق: جماعة من العلماء، دار الكتب العلمية- بيروت- ط/١، ٢٠١٤م.
٣- الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، ط/٤، ١٩٧٨م، مطبعة الحلبي.
٤- أثر النحاة في البحث البلاغي د/ عبد القادر حسين، ط/١٩٩٩م، دار غريب.
٥- الأدب المفرد الجامع للآداب النبوية، محمد بن إسماعيل البخاري أبوعبدالله، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، دار الصديق ط/٢، ٢٠٠٠م.
٦- ارتشاف الضرب، أبو حيان الأندلسي، تحقيق: د/رجب عثمان محمد،ط/١٩٩٨م الخانجي.
٧- أساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين، قيس إسماعيل الأوسي، ط/ ١٩٨٨م، دار الحكمة بغداد.
٨- أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر الجرجاني، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجة، مكتبة الإيمان مصر.
٩- أسس النقد عند العرب د/ أحمد أحمد بدوي، دار نهضة مصر.
١٠- أسلوب النفي والاستفهام في العربية في منهج وصفي في التحليل اللغوي د/ أحمد عمايرة،جامعة اليرموك الأردن.
١١- الأسلوبية والأسلوب، عبد السلام المسدي، الدار العربية للكتاب، تونس ط/ ٢، ١٩٨٢م.
١٢- أصول النحو العربي في نظر النحاة ورأي ابن مضاء، عالم الكتب، ط/ ٦، ١٩٩٧م، القاهرة.
١٣- أصول النقد الأدبي، أحمد الشايب، مكتبة النهضة المصرية ط/٩، ١٩٨٥م.
١٤- الأغاني لأبي فرج الأصفهاني، دار إحياء التراث العربي بيروت – لبنان، ط/ ٢، ١٩٩٧م.
١٥- الأمالي أبو علي القالي، ترتيب محمد عبد الجواد الأصمعي، دار الكتب المصرية ط/٢، ١٩٢٦م.
١٦- الأمالي الشجرية، أبو السعادات هبة بن على بن حمزة العلوي بن الشجري، ط/ دار المعرفة بيروت.
١٧- الأمثال الشعبية الفرعونية، محمد أبو رحمة، ط/١,٢٠١٠ حابي للنشر.
١٨- إنباه الرواة على أنباء النحاة، القفطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الكتب القاهرة.
١٩- أنساب الأشراف لأحمد بن يحيى البلاذري، تحقيق: محمود فردوس العظم،

دمشق ٢٠٠٠م.
٢٠- الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين، أبوالبركات ابن الأنباري تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الفكر، دمشق.
٢١- الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني، تحقيق: عبد الحميد هنداوي ط/١، ١٩٩٩م، مؤسسة مختار.
٢٢- بحار الأنوار، محمد باقر المجلسي، ط / إحياء الكتب الإسلامية بيروت.
٢٣- البداية والنهاية، عماد الدين بن كثير القرشي، تحقيق: حان عبد المان، بيت الأفكار الدولية، عمان الأردن، ط/ ١.
٢٤- البديع في شعر شوقي د. منير سلطان،، منشأة المعارف، الإسكندرية، ط/ ٢، ١٩٩٢ م.
٢٥- البرهان في تجويد القرآن، الأستاذ محمد الصادق قمحاوي. المكتبة الثقافية، بيروت لبنان.
٢٦- البرهان في علوم القرآن محمد بن عبد الله الزركشي بدر الدين، تحقيق: أبوالفضل الدمياطي، ط/ دار الحديث ٢٠٠٦م.
٢٧- البلاغة العربية، قراءة أخرى، محمد عبد المطلب، مكتبة لبنان، بيروت ١٩٩٧م
٢٨- البيان في غريب إعراب القرآن،أبو البركات الانباري، تحقيق: طه عبدالحميد، ط/ ١٩٧٢م.
٢٩- البيان والتبيين للجاحظ، تحقيق: د. درويش جويدي، المكتبة العصرية صيدا، بيروت لبنان، ط/٢٠١٤م.
٣٠- تأثير اقتران الحروف في دلالة النفي، د. زياد حبوب أبو رجائي.
٣١- تاريخ الرسل والملوك، الطبري: تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ط/٨، ١٩٧١م.
٣٢- تحرير التحبير لابن أبى الأصبع المصري،تحقيق د/ حنفي محمد شرف، ط/ ١٩٩٥م.
٣٣-التحليل اللغوي في ضوء علم الدلالة د/ محمود عكاشة، دار النشر للجامعات المصرية ط/ ٢٠٠٥م.
٣٤- التعريفات، أبو الحسن على بن محمد الجرجاني، دار الشؤون الثقافية العامة بغداد.
٣٥- تفسير البحر المحيط لابي حيان تحقيق: عادل أحمد – علي معوض، دار الكتب العلمية ط/١، ١٩٩٣م.
٣٦- تفسير الكشاف من حقائق التنزيل وعيون الأقاويل، ووجوه التأويل، الزمخشري ط/١٩٧٢م الحلبي.

٣٧- توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك المؤلف: أبو محمد بدر الدين المالكي شرح وتحقيق: عبد الرحمن علي سليمان، الناشر: دار الفكر العربي ط/١، ٢٠٠٨م.
٣٨- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، ط/ ١٩٨٤ م، بيروت.
٣٩- الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام المنثور "د/ مصطفى جواد، د/جميل سعيد، المجمع العلمي العراقي ١٩٥٦م.
٤٠- جواهر الأدب في معرفة كلام العرب علاء الدين الأربلي، تحقيق: حامد أحمد نيل، ط/ ١٩٨٤ السعادة.
٤١- جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع،السيد أحمد الهاشمي، دار الآفاق العربية ط/١، ٢٠٠٢م.
٤٢- الحجاج بن يوسف الثقفي، عمر فروخ، مكتبة الكاشف بيروت لبنان، ط/١٩٤١
٤٣- الحجاج بن يوسف الثقفي حياته، أخباره، سامر محي الدين أمين، دارالمستقبل، عمان، الأردن، ط/٥، ٢٠١٢م.
٤٤- الحجاج بن يوسف الثقفي المفترى عليه، محمود زيادة، ط/١، ١٩٩٥م. دار السلام.
٤٥- حروف المعاني والصفات، أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي، تحقيق: على توفيق الحمد، مؤسسة الرسالة – بيروت ١٩٨٤م.
٤٦- الخصائص، ابن جني، تحقيق: محمد على النجار، دار الكتاب العربي بيروت لبنان.
٤٧- خصائص التراكيب دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني تأليف: محمد محمد أبو موسى الناشر: مكتبة وهبة للطباعة والنشر ط/٤، ١٩٩٦م.
٤٨- دراسات في الأدوات النحوية، د/ مصطفى النحاس، ط/١، ١٩٧٩م. الربيعان، الكويت.
٤٩- دراسات في علم المعاني، الشيخ عبد الواحد وافي، مكتبة الإشعاع الفنية.
٥٠- دراسات نقدية في النحو العربي، د. عبد الرحمن أيوب، ط/١٩٥٧م، القاهرة.
٥١-دروس في البلاغة العربية: نحو رؤية جديدة- الأزهر الزناد، المركز الثقافي العربي، ط/١، ١٩٩٢م.
٥٢- دروس في المذاهب النحوية، عبده الراجحي، دار النهضة العربية ١٩٨٠م.
٥٣- دلائل الإعجاز: عبد القاهر الجر جاني، تحقيق محمود شاكر، ط/٢، ١٩٨٩م، الخانجي.
٥٤- دلالات التراكيب دراسة بلاغية د/ محمد محمد أبو موسى، ط/٣، ٢٠٠٤م

مكتبة وهبي.
٥٥-دلالة السياق وأثرها في توجيه المتشابه اللفظي في قصة موسى – عليه السلام – فهد بن شتوي الشتوي، جامعة أم القرى، رسالة دكتوراه.
٥٦- ديوان الشوقيات، أحمد شوقي، دار كنوز المعرفة، ٢٠٠٠م.
٥٧- ديوان طرفة ابن العبد، تحقيق: مهدي محمد ناصر الدين، دار الكتب العلمية٢٠٠٢م.
٥٨- ديوان المتنبي، طبعة دار صادر، بيروت ٢٠٠٠ م.
٥٩- ذاكرة الأرض أحمد بن صالح السَّياري، الملك فهد للنشر ٢٠٠٤م.
٦٠- الرد على النحاة، ابن مضاء القرطبي، تحقيق د/شوقي ضيف،. دار الفكر العربي ط/ ١٩٤٧م. القاهرة.
٦١- شرح الأشموني شرح الأشموني على ألفية مالك المسمى منهج السالك إلى ألفية ابن مالك للأشموني، تحقيق: محي الدين عبد الحميد ط/٢، ١٩٣٩م. الحلبي
٦٢- شرح التصريح على التوضيح، خالد بن عبد الله الأزهري، تحقيق: محمد باسل،، دار الكتب العلمية بيروت لبنان ط/١، ٢٠٠٠م.
٦٣- شرح الرضى على الكافية –تصحيح وتعليق يوسف حسن عمر، ط/ جامعة قاريونس١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.
٦٤- شرح المفصل، ابن علي بن يعيش موفق الدين النحوي، إدارة الطباعة المنيرية.
٦٥- شروح التلخيص، دار الكتب العلمية بيروت – لبنان.
٦٦- الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها، أحمد بن فارس، تحقيق: مصطفى الشويمي، ط/ ١٩٦٣م، بدران بيروت.
٦٧- الصحة النفسية والإرشاد النفسي د/علاء الدين كفافي ط/٢، ٢٠٠٥ دار النشر الدولي.
٦٨- الطراز، يحيى العلوي علي بن حمزة، طبعة المقتطف، مصر ١٩١٤م.
٦٩- العقد الفريد ابن عبد ربه الأندلسي، تحقيق: عبد المجيد الترحيني، دار الكتب العلمية بيروت لبنان ط/ ١، ١٩٨٣م.
٧٠- علم المعاني، عبد العزيز عتيق،، دار الأفاق العربية، القاهرة ١٩٩٨م.
٧١- علوم البلاغة "البيان والمعاني والبديع" أحمد مصطفى المراغي، دار الآفاق ٢٠٠٠م.
٧٢- فتح الباري في صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني كتاب أحاديث الأنبياء دار الريان ١٩٨٦م.
٧٣- فتوح البلدان أحمد بن يحيى بن جابر بن داود البَلَاذُري، دار ومكتبة الهلال بيروت ١٩٨٨م

٧٤- فن البلاغة د/ عبد القادر حسين، دار الكتب – بيروت ط/٢، ١٩٨٤م.
٧٥- الفهرست، ابن النديم تحقيق مصطفى الشويمي، الدار التونسية والمؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، ط ١٩٨٥م.
٧٦- قضايا النقد الادبي د/ بدوي طبانة. مكتبة بوكس ستريم ١٩٨٤م
٧٧- الكامل في التاريخ، ابن الأثير، تحقيق: محمد يوسف الدقاف، دار الكتب العلمية بيروت لبنان ط/١، ١٩٨٧م.
٧٨- الكامل في اللغة والأدب أبو العباس محمد بن يزيد المبرد، تعليق: محمد أبوالفضل إبراهيم، دار الفكر العربي،القاهرة.
٧٩- الكتاب سيبويه، تحقيق: عبد السلام هارون، مطبعة الخانجي، ط/ ١٩٨٨،٢م.
٨٠- كيف يتلى القرآن الشيخ عامر بن السيد عثمان، تحقيق: أحمد بن محمد ابن مأمون، ط/١، ١٩٠٠م، أولاد الشيخ للتراث.
٨١- لسان العرب ابن منظور،، ط/ دار الحديث ٢٠٠٣م.
٨٢- اللغة والإبداع الأدبي، محمد العبد، دار الفكر للدراسات والتوزيع، القاهرة، ١٩٨٩.
٨٣- اللغة العربية معناها ومبناها، د/ تمام حسان، ط/٣، ١٩٧٩م. الهيئة المصرية للكتاب.
٨٤- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، علي بن أبي بكر الهيثمي نور الدين تحقيق: حسام الدين القدسي، مكتبة القدسي.
٨٥- محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية الدولة الأموية، محمد الخضر بك، تحقيق: محمد العثماني، دار القلم، بيروت لبنان ط/١، ١٩٨٦م.
٨٦- مختار الصحاح للرازي ص١٩٣، دار الحديث ط/١، ٢٠٠٠م.
٨٧- المختصر في تاريخ البلاغة د/عبد القادر حسين، دار الشروق، بيروت الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ، ١٩٨٢م.
٨٨- مروج الذهب ومعادن الجوهر، أبي الحسن بن علي المسعودي، راجعه: كمال حسن مرعي، الناشر: المكتبة العصرية – بيروت لبنان ط/١، ٢٠٠٥م.
٨٩- المستدرك على الصحيحين محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري أبو عبدالله؛ تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا؛ دار الكتب العلمية ٢٠٠٢م.
٩٠- معاني النحو د/ فاضل صالح السامرائي ٤/ ٦٠٣، جامعة بغداد، بيت الحكمة ط/ ١٩٩١م.
٩١- معجم البلدان ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي شهاب الدين أبوعبد الله، دار صادر بيروت ط/١٩٩٣م.

٩٢- معجم المصطلحات البلاغية العربية وتطورها، المجمع العلمي العراقي، بغداد – ١٩٨٣م.
٩٣- المعجم الوجيز مجمع اللغة العربية طبعة وزارة التربية والتعليم ٢٠٠٤م.
٩٤- مغني اللبيب عن كتب التعابير، ابن هشام الأنصاري، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، ط/ المدني.
٩٥- المفصل في علم العربية، أبو القاسم محمود الزمخشري، دار الجبل بيروت – لبنان.
٩٦- المقتضب للمبرد، تحقيق: محمد عبد الخالق عضيمة، عالم الكتب، بيروت.
٩٧- موجز التاريخ الإسلامي، أحمد معمور العسيري، مكتبة الملك فهد الوطنية، ط/١، ١٩٩٦م.
٩٨-النحاة والقياس، صلاح الدين الزعبلاوي، مجلة التراث العربي دمشق العدد ٣٢، ١٩٨٨م.
٩٩- النحو الكافي، أيمن أمين عبد الغني، مراجعة أ. د/ رمضان عبد التواب، أ. د/ إبراهيم الإدكاوي، أ. د/ رشدي طعيمة، دار ابن خلدون،ط/ ٣، ٢٠٠٢م.
١٠٠- النحو والدلالة مدخل لدراسة المعنى النحوي الدلالي د. محمد حماسة عبد اللطيف، ط/ دار الشروق ٢٠٠٠م.
١٠١- النداء في اللغة والقرآن، أحمد محمد فارس، وما بعدها. دار الفكر العربي ١٩٨٩م.
١٠٢- همع الهوامع في شرح جمع الجوامع في علم اللغة العربية، جلال الدين الأسيوطي ٦٩/٢، ط/ دار المعرفة بيروت – لبنان.

فهرس الموضوعات

الموضـــــــوع	الصفحة
المقدمـــــة	٩٢١-٩٢٤
التمهيـــد: **الحجاج وموقعة دير الجماجم**" .... -الاطار التاريخي للعصر الأموي- الخطاب السياسي في عصر الحجاج وسماته البلاغية – التعريف بالحجاج بن يوسف الثقفي- موقعة دير الجماجم (٨٣هـ).	٩٢٥-٩٣٥
• **الفصل الأول**: **نداءات الحجاج لأهل العراق "بين البلاغة والدلالة والنقد**	٩٣٦
– مفهوم البلاغة – نص خطبة الحجاج بعد دير الجماجم	٩٤٠
• **المبحث الأول**: **السمات البلاغية في النداء الأول**.....	٩٤١
– الرمزية كاصطلاح في نداء الحجاج لأهل العراق.....	٩٤٥
– دلالة الصورة البيانية.....	٩٤٨
– دلالة أسلوب النفي الصريح.....	٩٦٨
– دلالة أثر المشاهد والمعارك في نداء الحجاج الأول.....	٩٧٢
• **المبحث الثاني**: **الفنون البلاغية في النداء الثاني**.....	٩٧٤
– القضية الأولى: الكفرات بعد الفجرات	٩٧٦
– القضية الثانية: الغدرات بعد الخترات.....	٩٧٦
– القضية الثالثة: النزوة بعد النزوات	٩٧٨
• **المبحث الثالث**: **الأسرار البلاغية في النداء الثالث والرابع**.	٩٨٧
– دلالة اسم الفاعل في نداءات الحجاج.....	٩٨٩
– الحجاج والسجع.....	٩٩٢
• **المبحث الرابع**: **دلالة الاستفهام في نداء الحجاج لأهل العراق**....	٩٩٤
– شمولية السؤال وامتداده.....	٩٩٥
– العطف الاستفهامي.....	٩٩٦
– المعاني المجازية لأسلوب الاستفهام في الخطبة.....	٩٩٧

• **الفصل الثاني**: **نداء الحجاج لأهل الشام "بين البلاغة والدلالة والنقد"**	١٠٠٢
• **المبحث الأول**: **السمات البلاغية في النداء الأول**.....	١٠٠٣
– التطور العاطفي في خطبة الحجاج.....	١٠٠٣
– بلاغة الجملة الندائية في خطابه لأهل الشام.....	١٠٠٦
• **المبحث الثاني**: **السمات البلاغية في النداء الثاني**.....	١٠١٦
– دلالة الصورة البيانية في ندائه لأهل الشام.....	١٠٢١
– دلالة الحروب وأثرها في نداء أهل الشام.....	١٠٢٢
• **المبحث الثالث**: **دلالة النداء في خطبة دير الجماجم**	١٠٢٣
– مواضع النداء في الخطبة	١٠٢٤
– المعاني المجازية لأسلوب النداء في الخطبة	١٠٢٩
• **المبحث الرابع**: **خطبة دير الجماجم بين البلاغة وفنون اللغة وفروعها**.	١٠٣١
– السمات الأسلوبية في الخطبة	ؤ١٠٣٣
– مفهوم الشكل والمضمون في الخطبة	١٠٣٤
• **الخاتمة**.	١٠٣٦
• **ثبت بأهم المصادر والمراجع**.	١٠٤٠
• **فهرس الموضوعات**.	١٠٤٦